من الأدب الصوفي

هشام الرباكي

تأملات في شعر الإمام الحداد

قصيدة ❁ يا زائري ❁

جوهرة الديوان

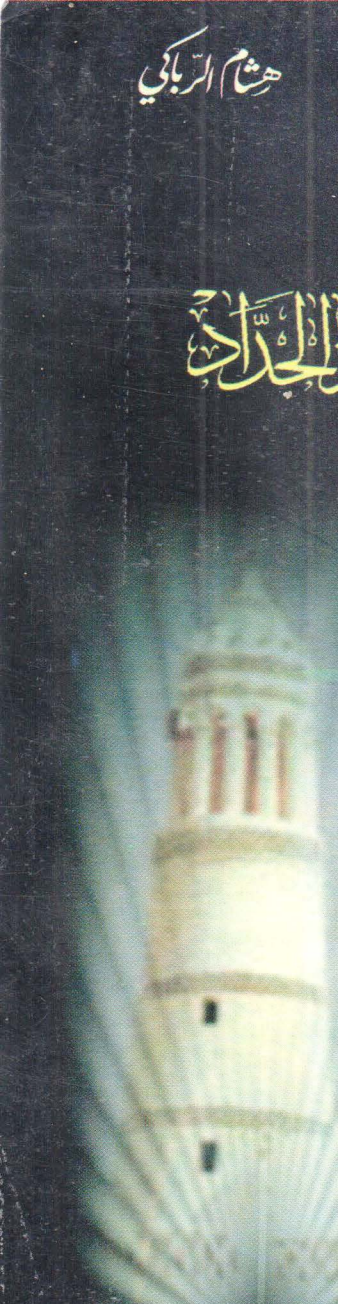

مكتبة تريم الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

تأملات في شعر الإمام الحداد

قصيدة يا زائري

(جوهرة الديوان)

العنوان: تأملات في شعر الإمام الحداد.
المؤلف: هشام كرامه الرباكي.
عدد الصفحات: ٧٥
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٤سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.
التنضيد والإخراج الفني:
مكتبة تريم الحديثة

حقوق الطبع محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

الكتب والدراسات التي تصدرها المكتبة لا تعني بالضرورة تبنِّي الأفكار الواردة فيها؛ وهي تُعبِّر عن آراء واجتهادات أصحابها.

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

من الأدب الصوفي

هشام الرباكي

تأملات في شِعر الإمام الحداد

قصيدة يا زائري

(جوهرة الديوان)

محبتهم ديني وفرضي وسنتي وعروتي الوثقى وأفضل ما عندي

وفي قربهم أنسي وروحي وراحتي ولست بشيء إن بلوني بالبعد

الإمام الحداد

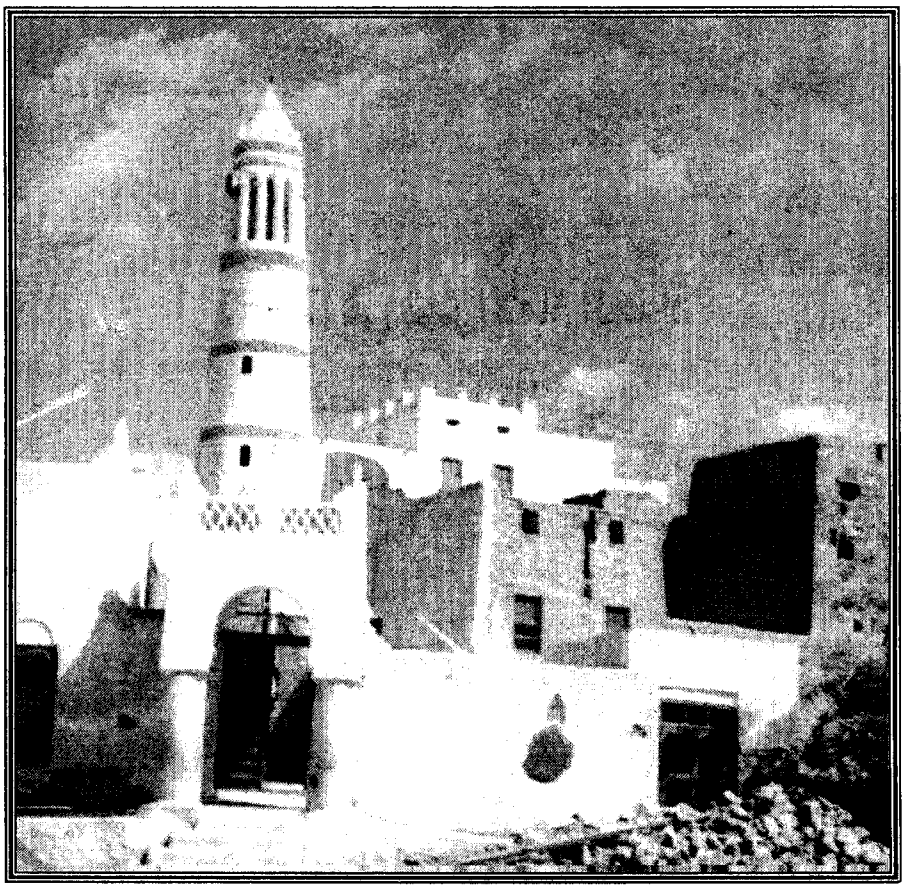

صورة مسجد الفتح قبل التجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

- إلى أهل المحبة والصفاء.
- إلى أرواح أحبائي الذين لم تراهم عيني.
- إلى أرواح أحبائي الذين عشنا معهم وافتقدناهم.

شـــكر وتقـــدير

كل الشكر والتقدير

للسيد عبد القادر بن سالم خرد باعلوي حفظه الله

الذي بدعمه طبع هذا الكتاب

تقـــريض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق البشر، مانح الأسرار ومنزل السور، وأصلي واسلم على الهادي النير. محمد كافل الأفكار ومجلي النظر، وعلى آله الطيبين وصحابته ومن سار بهديه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد تأملت ما سطره أخونا الأديب هشام بن كرامه الرباكي. وهي بادرة لمن أراد نشر هذه الدرة الثمينة ألا وإنها الكلمات الخالدة والروحانية السماوية للإمام القدير عبد الله بن علوي الحداد، وقد وفقه الله لشرح هذه القصيدة الرائية محاولة لكشف أنوارها وسبر أغوارها فبوركت تلك الأنامل وزاده الله تشريفاً وتعظيماً ما بقيت معالم الحداد تراثاً نيراً علماً وعملاً إنه نعم المجيب.

أحمد بن عبد الله بن شهاب

١٤٣٠/٣/٧هـ

تريم

تقديم

الإمام عبدالله بن علوي الحداد أحد أبرز علماء و متصوفة حضرموت، وإلى جانب آثاره الكثيرة، يحتل ديوانه مكانة أثيرة في النفوس، و ظل شعره مقدما في المجتمعات التي تقام في المناسبات المختلفة، إذ يتغنى به المنشدون، فيمتزج صوته بأصوات الحاضرين الذين يحفظون شعر الحداد عن ظهر قلب؛ طربا لها و تأثرا بما فيه من المعاني و العظات.

و مع ذلك لا نجد من تصدى لدرس ديوان الحداد درسا حديثا، و بيَّن ما فيه من أسرار و معان و مقاصد، اللهم إلا شروحا لقصائد بعينها كالعينية ونسيم حاجر وسواهما، و هذه الدراسة التي أقدمها بين يدي القارئ، قدمها لي الباحث الأستاذ هشام الرباكي، فوجدتها محاولة جديدة للغوص في ديوان الإمام الحداد، استعرض فيها لحياة الإمام الحداد و مضامين و أساليب شعره بعامة، ثم اختار قصيدة (يا زائري) التي عَدَّها الباحث (جوهرة الديوان) لما اشتملت عليه من معاني الشوق والمحبة وغيرهما من المعاني الدالة على مشارب ومقامات وأحوال صوفية، ولأنها نموذج من الاتجاه العام الذي يتميز به الديوان في أغراضه وموضوعاته.

و لقد اجتهد الباحث – في تقديري – في الولوج إلى عالم القصيدة متسلحا بأدوات الناقد و المتصوف معا؛ لأن درسا كهذا لا يمكن أن يتم بأحدهما،

واستطاع أن يقارب من أجل فهم مرامي الشاعر، على أن فهم مرامي الشاعر موضع اختلاف بين مدارس النقد القديمة والحديثة، ما جعل المحدثين يتجاوزونه إلى الاهتمام بالبنية أكثر من المضمون، ولذلك حاول الباحث أن يجمع في درسه بينهما معا، مستفيدا من كل مدارس النقد. والشيء الذي يمكن ملاحظته أن الباحث - ربما بحكم انتمائه إلى المدرسة الصوفية - انتصر لاتجاه الشاعر الصوفي، وظل سائرا في خط مستقيم، ليؤكد أصالة الشاعر وتفننه في شعره، وكأني به هنا قد رد على من يصنف شعر الإمام الحداد ضمن عصر الضعف والانحطاط الذي انتاب الشعر العربي.

إن ما فعله الباحث في هذا الدرس جدير بالتقدير و الثناء .

علي أحمد بامرجاء

سيئون: ١٧ مارس ٢٠٠٩م

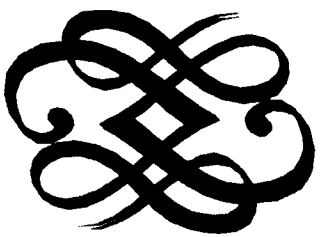

المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم آياته ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] والصلاة والسلام على أشرف المرسلين مقاماً وأفصحهم بياناً القائل عن الله تعالى: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**» وهو من كلام رب العزة والجلال في بيان مرتبة الأولياء والصالحين العارفين والعلماء العاملين بعلمهم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته المكرمين ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن هذه التأملات عبارة عن محاولة في فهم بعض أسرار ديوان الإمام العظيم قطب الدعوة والإرشاد السيد عبدالله بن علوي الحداد رضي الله عنه المولود عام (١٠٤٤هـ) والمتوفى عام (١١٣٢هـ)، وبدايةً اعترفُ أني في هذه المحاولة تعرضتُ لصعوبات جمّة من أجل الغوص في بحور معارفه وعلومه وأسراره، وأعني بها تلك الصعوبات النفسية، فقد كنتُ في البداية وضعتُ عنواناً لهذا الإبحار (**قراءة نقدية في ديوان الإمام الحداد**) فعدلتُ عنه تأدُّباً مع الإمام الحداد.

وثانياً؛ صعوبة الوفاء بهذا العنوان لأن المقصود هو الإمام الحداد وما أدراك ما الإمام الحداد، فأبدلتُ العنوان والاسم إلى (**تأملات في شعر الإمام الحداد**) لعلّي إن خانني النظر في هذا التأمل يقال لي (العتب على النظر) كما يقول المثل.

وحاولتُ أن أبحُرَ بإمكاناتي المتواضعة لكن هذه القصائد العملاقة في مبناها ومعناها وظاهرها وباطنها جعلتني اضطرب كثيراً في اختيار النصوص لهذا التأمل، فوقع نظري أكثر من مرة على قصيدة (يا زائري) ولا أحسبها صدفة، فجعلتها أنموذجاً لهذا التأمل وأسميتها (جوهرة الديوان) وأبحرت فيها منذ البداية، وتواردت الأفكار تترى، ولكن في بعض الأحيان يتوقف الفكر والقلم معاً، عندها أشعرُ بعدم القدرة على التحرك لا لشيء؛ إلا لأني كنت أتعامل مع إمام عظيم في ذاته وفي علمه وفي شعره وفي أسراره، ومع ذلك كنت أؤمن بأنَّ التعامل مع مثل هؤلاء العظماء لابدَّ له من إشارة خضراء تسمح لي بالمضي في هذا الطريق فحصلت لي بعض المبشرات وقمتُ بعرضها على الحبيب العلامة سالم ابن عبدالله الشاطري أطال الله عمره ونفع الأمة بعلمه، وبعد أن أنهيتُ هذا التأمل قرأته عليه وأرشدني إلى كثير من المسائل، كما استمعت لنصائح أستاذنا الفاضل الحبيب المنصب حسن بن عمر الحداد الناظر على مقام الإمام الحداد.

ونظراً لكون الشعر عند الإمام الحداد ليس شعراً عادياً فهو منهج متكامل في علوم الشريعة وأحوال الطريقة والحقيقة، وحقائق وأسرار، حاولت التأمل في بعض قصائده وخرجت منه ببعض مفاهيم وحقائق أهل الطريقة من خلال استعراض نماذج من شعره ويكفيني شرفاً أني ازددت حباً لهذا الإمام العظيم وللأولياء والصالحين الذين كانوا ومازالوا بين الناس أنواراً تمشي على الأرض ونجوما يهتدي بها السائر، ويُرشد بها الحائر.

وإنّه مما يؤلمني كثيراً دعاوى بعض مَنْ يدّعون المعرفة لأسرار الطريقة؛ ثم لا ينظرون إلاّ إلى الأشكال والصور ويدقّقون النظر في الذوات، ولا ينظرون إلى

الأعمال التي من خلالها يتمُّ الحكم على أي عمل كان، ولكن ما يعزيني أنهم لا يعرفون حقائق الأمور؛ وإلاَّ لأرشدهم نور البصيرة الذي يحرك قلب الإنسان إلى معرفة الحقيقة.

إنَّ هذا التأمل تعبير خالص عن حبي العميق لهذا الإمام العظيم وأرجو من الله العلي الكبير أن يحقق لنا شهود أسراره وأنواره في الحياة وبعد الممات.

ولو خرجنا من هذا التأمل بجوهرةٍ واحدة من جواهر الإمام الحداد لكان في ذلك خيراً كثيراً.

إن هذا الإبحار ليس عبارة عن أفكار وتعابير شخصية فحسب؛ ولكنه يعتمد على عدد من المراجع التي اعتمدنا عليها في تثبيت هذه الأفكار التي أشرنا إليها في نهاية هذا الكتاب في ثبت المراجع والمصادر؛ أو التي ذكرناها في هوامش الصفحات.

وقد قمتُ بتقسيم هذا البحث إلى قسمين: قسمٌ يتعلق بمجموعة من الأسس التي اعتمد عليها أرباب الطريقة للوصول إلى المحبة الخالصة والمعرفة لله سبحانه وتعالى؛ وهي الحب الإلهي وينطوي تحته الحب النبوي والتعلق بأرباب الطريقة الذين سبقوا من خلال الأحوال والمقامات العظيمة التي وصلوا إليها من خلال أساسيات الطريقة كالمناجاة، ومقدمات الاتصال كالحب والشوق والخوف، وحالات الاتصال من أنسٍ وسكرٍ وفناء وكلها تحتوي على مقامات عظيمة وأسرار ربانية.

والقسم الثاني: عبارة عن إبحار عميق في قصيدة (يا زائري) ومحاولة لفهم مدلولات الألفاظ والتراكيب فيها والأبعاد الندائية الثلاثة التي شملت خطاب الذات الإلهية، وخطاب القلب وخطاب الروح بالإضافة إلى أساسيات طريق التصوف كالصمت والصوم والتخلّي والتحلّي، والسهر في العبادة والمجاهدة، وختمته بخاتمة مختصرة عن السبب لهذا الإبحار.

وأخيراً: أتوجّه بالشكر الجزيل لكل من ساعدني في إتمام هذا الموضوع من خلال تقديم المراجع والمصادر أو التشجيع والمساندة المعنوية.

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك الكريم وعظيم سلطانك، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك؛ اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

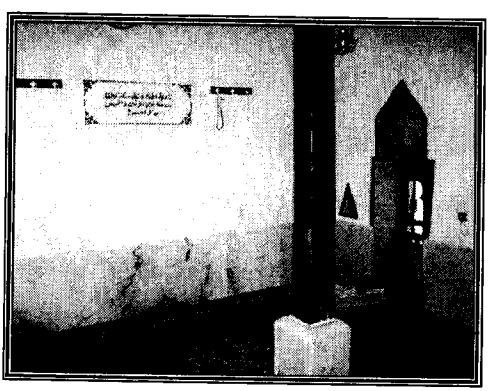

زاوية الإمام الحداد ومكان إلقاء دروسه

يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع

تأملات في شعر الإمام الحداد

قصيدة يا زائري (أنموذجاً)

جوهرة الديوان

الإمام الحداد:

هو السيد الشريف والإمام العظيم والبحر الواسع جامع الأوصاف العلمية وبحر العلوم اللّدنية قطب الدعوة والإرشاد عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد العلوي. ينتسب إلى سلالة الإمام علوي عم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي[١]، وينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وفاطمة الزهراء، بنت الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولد الإمام الحداد في مدينة تريم يوم الاثنين (٥/ صفر سنة ١٠٤٤هـ) ولّما بلغ من العمر أربع سنوات فَقدَ بصره وذلك بسبب مرض الجذَري، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى عوّضه بنور البصيرة فما أسعده بهذا التعويض، فحفظ القرآن وجدَّ واجتهد في طلب العلم، فتعرف على أمهات الكتب واستوعبها وَأخذ عن شيوخ عصره العلوم المختلفة فحفظها.

يقول الإمام الحداد عن نفسه: (كنت من حين الصغر وأنا في الجدِّ والعبادة وأنواع المجاهدة)[٢].

---

(١) الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي: شيخ الشريعة وإمام الحقيقة، سيد الطائفة الصوفية بحضرموت، ولد بتريم وتوفي بها سنة ٦٥٣هـ (المشرع الروي) للشلي (٢/ ٧).

(٢) الإمام الحداد هو مجدد القرن الثاني عشر، د/ مصطفى البدوي (صـ ٤٠).

محل ميلاد الإمام الحداد بالسبير

* * *

وأما عن شيوخه: فمنهم السيد الحبيب عمر بن عبدالرحمن العطاس[١]، والسيد الحبيب عقيل بن عبدالرحمن السقاف[٢]، والسيد عبدالرحمن بن شيخ عيديد[٣]، والسيد سهل بن أحمد باحسن[٤] العلوي والسيد محمد بن علوي السقاف نزيل مكة[٥]. وغيرهم كثير.

---

(١) عمر بن عبدالرحمن العطاس نبغ في العلوم وصحبه خلق كثير وانتفع به نفعا عظيما، ولد بتريم وتوفي بحريضة سنة ١٠٧٧ هـ (المشرع الروي).

(٢) عقيل بن عبدالرحمن السقاف ولد بتريم وتوفي بها سنة ١١٠٠هـ).

(٣) عبدالرحمن بن شيخ عيديد: كان من كبار العلماء العاملين والأئمة المجتهدين، إذا رأى منكراً بادر إلى إزالته ولا يخاف في الله لومة لائم، صحب أبي بكر بن سالم، وأخذ عنه الحداد، توفي سنة (١٠٦٨هـ).

(٤) سهل بن أحمد باحسن: إماماً فاضلاً عالماً، ولد بتريم وولي بها القضاء، وتوفي بها سنة (١٠٧٦هـ).

(٥) محمد بن علوي السقاف إمام الحرمين نادرة الزمان ولد سنة ١٠٠٢ وتوفي سنة ١٠٧١هـ (المشرع الروي ١/ ١٩٢).

تشبّع هذا الإمام العظيم منذ طفولته بمختلف العلوم الدينية والصوفية ابتداءً من الإرشاد والبداية ومروراً بالإحياء ومؤلفات الإمام الغزالي، فتوسعت مداركه وانفتحت له أبواب الفتوح المختلفة فكان بحق قطب الدعوة والإرشاد وكعبة المريدين الذين أخذوا عنه العلوم المختلفة وأبرزهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام أحمد بن زين الحبشي[1] صاحب حوطة أحمد بن زين التي تُنسب إليه وهو إمام عظيم شرح عينية الإمام الحداد في كتاب مطوّل يُعدُّ قاموس في أعلام الطريقة.

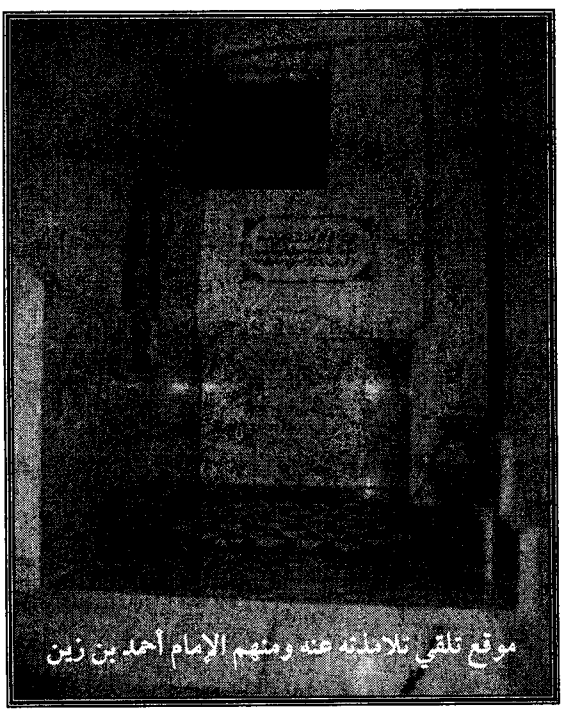
موقع تلقي تلاميذه عنه ومنهم الإمام أحمد بن زين

(١) أحمد بن زين الحبشي: إماماً في العلوم العقلية والنقلية توفي بخلع راشد سنة ١١٤٥هـ (شمس الظهيرة ٢/ ٤٧١).

ومنهم ابنه الحسن[١] والسيد العلامة عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه[٢]، والسيد الحبيب محمد بن زين بن سميط[٣] والسيد عمر بن زين بن سميط[٤] والسيد عمر بن عبدالرحمن البار[٥]، والسيد علي بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف[٦] والشيخ العلامة أحمد عبدالكريم الشجار[٧] والشيخ سليمان بن محمد باحرمي ...[٨].

وفي يوم الثلاثاء السابع من ذي القعدة سنة (١١٣٢هـ) توفي الإمام الحداد مخلّفاً وراءه الذكر الحسن والمؤلفات والرسائل في مختلف العلوم الدينية والاجتماعية والصوفية متأثراً في جلّها بمنهج الإمام الغزالي فانتشرت مؤلفاته في بقاع الأرض وتُرجمت إلى لغات عديدة.

---

(١) الحسن بن عبدالله الحداد: ذا وجاهة وتقوى وسخاء ولد بتريم وتوفي بها سنة ١١٨هـ (شمس الظهيرة) [٢/ ٥٦٣].

(٢) عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه: علامة الدنيا من كبار العلماء والأئمة ولد بتريم وتوفي بها سنة ١١٦٢هـ (عقد اليواقيت [٢/ ٦٧].

(٣) محمد بن زين بن سميط توفي بشبام ١١٧٢هـ (عقد اليواقيت) [٢/ ٦٧].

(٤) عمر بن زين بن سميط: كان من الأئمة المجتهدين والعلماء المحققين والأولياء المشهورين، توفي بشبام (١٢٠٧هـ).

(٥) عمر بن عبدالرحمن البار: إمام الأئمة الأخيار، من كمل العلماء العاملين والأئمة المحققين المجتهدين شديد الزهد والورع ولد بالقرين وتوفي بها سنة (١١٥٨هـ). ابن سميط: (بهجة الفؤاد).

(٦) علي بن عبدالله بن عبدالرحمن بن علي السقاف: كان من كبار الأولياء والعلماء العاملين شديد التواضع يخدم الفقراء توفي بسيئون (١١٨١هـ).

(٧) شهاب الدين أحمد بن عبدالكريم الشجار الإحسائي لازم الإمام الحداد سبعة عشر عاما على الدوام، وكان ذا حفظ للعلم كتب جميع مؤلفات الإمام الحداد بقلمه وحفظ من كلامه وكراماته لكثرة ملازمته له سافر بعد وفاة الحداد وأقام في الإحساء علس سيرة حميدة عابدا وناسكاً...(بهجة الزمان للحبيب محمد بن زين بن سميط. صـ٢٩٤-٢٩٥).

(٨) لمعرفة المزيد من تلاميذ الإمام الحداد، ينظر إلى كتاب رحلة في ديوان الحداد (صـ٢٥).

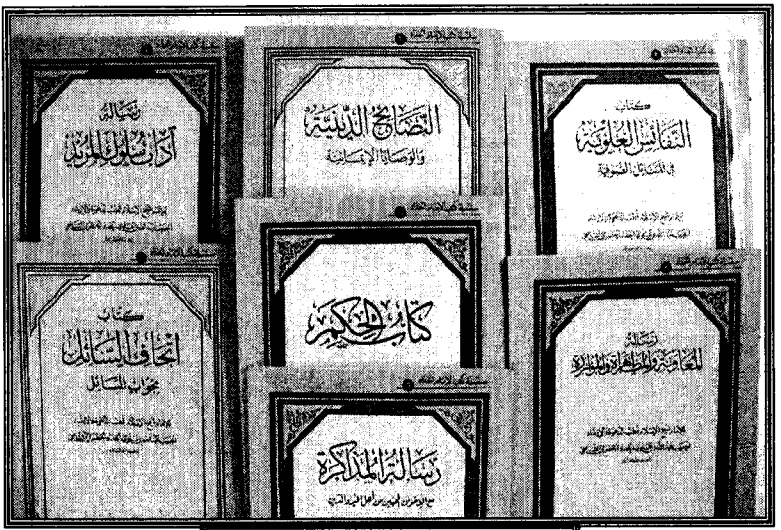

صور بعض مؤلفات الإمام الحداد

مؤلفات الإمام الحداد:

مؤلفات الإمام الحداد كثيرة ومتنوعة شملت علوم الشريعة والدين وطرق ومسالك أهل التصوف والزهد والعقيدة والأذكار والأدعية والحكم والاجتماع، فهي في جملتها منهج متكامل للدارس الباحث عن الحقيقة الراغب في النجاة.

من مؤلفاته:-

١- كتاب النصائح الدينية والوصايا الإيمانية.

٢- كتاب سبيل الادّكار والاعتبار.

٣- الدعوة التامة والتذكرة العامة.

٤- الفصول العلمية والتذكرة الحكمية.

٥- تثبيت الفؤاد.

٦- رسالة المذاكرة مع الإخوان والمحبين.

٧- رسالة المعاونة والمظاهرة والمؤازرة للراغبين من المؤمنين في سلوك طريق الآخرة.

٨- النفائس العلوية في المسائل الصوفية.

٩- آداب سلوك المريد.

١٠- وسيلة العباد إلى زاد المعاد.

١١- الورد اللطيف.

١٢- الراتب الشهير

١٣- الدّر المنظوم لذوي العقول والفهوم «ديوان الإمام الحداد».

الذي تأملت فيه هذا التأمل وقد شرح بعض قصائده عدد من الشرّاح وأفاضوا فيها وخرجوا من مدلولها الأدبي إلى مدلولات أخرى علمية ودينية وفقهية وصوفية. منهم السيد الإمام أحمد بن زين الحبشي الذي شرح قصيدة الإمام الحداد المسماة «**العينية**» والسيد علي بن عيسى الحداد قصيدة «**أحبتنا بنجد والصفيح**» وشرح الإمام أحمد بن أبي بكر بن سميط[1] قصيدة الإمام الرائية في كتاب سماه «**منهل الورّاد**» وكذا «**اللامية**»، و«**أحبتنا بنجدِ**»، وشرح علوي بن أحمد السقاف قصيدة «**وصيتي لك يا ذا الفضل والأدب**» وشرح الحبيب الإمام محمد بن زين بن سميط قصيدة «**يا رب يا عالم الحال**».

---

(١) أحمد بن أبي بكر بن سميط العالم المحقق المشهور له بالفضل تولى القضاء بزنجبار وتوفي بها سنة (١٣٤٣هـ).

ولعلّ من الأسباب التي جعلت الكثير من الكتّاب يشرحون القصيدة الواحدة أو الاثنتين أو محاولة الكتابة عن الإمام الحداد ثم العدول عن ذلك هي:

أولاً: ما قاله السيد الحبيب عبدالقادر بن سالم الخرد: «اعترافاً منهم بالعجز عن الخوض في هذا الميدان الواسع الأطراف والعوم في ذلك المحيط الذي لا ساحل له، فإن الإمام الحداد لم يكنْ شخصاً عادياً .. في جميع جوانب حياته، فقد كان نموذجاً فريداً ونادرة من نوادر الزمن، قريباً بعيداً كائناً غير كائن، وحيداً فريداً في طريقه وقصده غريباً في مجتمعه على كثرة الآلاف في جانب وحده» ضمن كلامه بالتعريف بالديوان.

وثانياً: أن القصيدة الواحدة تتطلب في شرحها وفَكِّ رموزها ومعرفة مكنونها واكتشاف أسرارها كتاباً مستقلاً بعد جهد كبير وإبحار شاق في علوم الإمام الحداد المتداخلة التي تتحملها مدلولات الألفاظ في انتظامها الساحر للناظر الواعي، كما هو الحال في شرح «العينية» للإمام أحمد بن زين الحبشي الذي استغرق أكثر من ٣٥٠صفحة.

صور لشروح بعض مؤلفات الإمام الحداد

القسم الأول

الشعر عند الإمام الحداد:

قال الحبيب عمر بن زين بن سميط: «أكثر ديوان الإمام الحداد وقصائده كلها في الحرمين الشريفين»[١].

وهذا الكلام وإن كان على عمومه يحتاج إلى وقفة قصيرة وهي أنّه المحور الذي ترتكز عليه قصائد الديوان على أساس أن الحرمين الشريفين أفضل الأماكن ولا يحتاج إلى توضيح، ومنهما تتفرع العلاقات الوجدانية الشعرية فيما يتعلق بأمور الدين والشرع أو ما يتعلق بعلوم الطريقة والمحبة الخالصة وهذا ما نلاحظه في شعر الإمام الحداد حبٌّ إلهي، وحبٌّ نبوي وحبٌّ أرضي برزخي ومناجاة ودعاء ونصائح ووصايا وعقيدة وتوحيد وفقه في الشريعة ومعرفة في الحقيقة والطريقة وقربٌ وأنسٌ وعشق وسكر وفناء، كل هذه المواضيع وغيرها عبّر عنها الإمام الحداد شعرياً بطريقة تأسر الألباب وتحيِّر جهابذة هذا الفن في الظاهر والشكل؛ أما باطنها فأسرار وعلوم حدّث عنها ولا حرج ولن تحصرها.

هذا التوظيف الشعري والوجداني للغة بُنيةً ومعنى جعلت منه شاعراً من الدرجة الأولى، من خلال توليد معاني جديدة واختراع وابتداع «يحسَّ القارئ

---

(١) ديوان الإمام الحداد، الطبعة الثانية (٢٠٠١م) (صـ١٧).

عند قراءته للديوان بنسبة كبيرة من المشاعر والأحاسيس»[١] يقول ابن رشيق القيرواني في (عمدته): «إن الشعر هو اللفظ والوزن والمعنى والقافية معاً وإن الشاعر سمي شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استظراف لفظ وابتداعه كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة»[٢] وبالإضافة إلى ذلك الصدق في التعبير عند شعراء الصوفية عن المشاعر والأحاسيس وإبراز مكونات النفس الراغبة في التعبير عن المحبة ولا شيء غيرها ليس من أجل مال يكتسب، ولا عطايا توهب، فكانت أشعارهم أقمارا مضيئة اكتسبتها من الأنوار الربانية وألبستها حلل الجمال المطلق.

ومن هذا المنطلق كان هذا التأمل في شعر الإمام الحداد تأمل الناظر للبحر وما أدراك ما البحر، أسرارٌ وعجائب ولطائف وفوائد وخيراتٌ وجمال...

والمتأمل تكفيه متعة النظر وإن قذف البحر سراً من أسراره أو تحفة من عجائبه أو مسحة من جماله كان الفوز الكبير.

والإمام الحداد بحر لا ساحل له وقف الكثير من العارفين أمامه وما غرف كل واحد منهم إلاّ غرفة بيده.

والمتأمل في ديوانه - رضي الله عنه - يجد عنواناً بارزاً يغطيّه (المحبة)؛ المحبة الخالصة المتمثلة في حبّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين والناس أجمعين.. كيف لا وهو الراسخ في

---

(١) ديوان الإمام الحداد، الطبعة الثانية (٢٠٠١م) (صـ١٧).

(٢) عمر بامخرمه السيباني، حياته وتصوفه وشعره، عبدالرحمن بن عقيل (صـ٥٧).

العلوم والحائز أعلى المقامات والأحوال، انتفع بعلمه خلق كثير .. واسترشد بطريقته مريدون وباحثون عن الحقيقة.

يقول الإمام الحداد في (الحب الإلهي):

يا بهجة الحسن هل أراك ... وهل سبيل إلى لقاك
قطعت بالبعد والتجافي ... قلبي فما بي من حراك
أصبحت بين الأنام صبّاً ... إليك ليس إلى سواك

وفي قصيدته التائية التي مطلعها:

بعثت لجيران العقيق تحيتي ... وأودعتها ريح الصِّبا حين هبتِ

يعبّر فيها عن محبة الله تعالى والتي تشمل في مضمونها أساسيات علم الباطن وأسس علم الطريقة في أعلى مراتبها الحب والشوق والسكر في المحبة.

يقول الإمام الحداد:

فلله روح خالط الحب كلَّها ... ومازجها حتى صبَت للصبابة
وخامرها خمر الغرام فأصبحت ... وأمست على حبِّ الحبيب مقيمة
يظن بها من ليس يدري بشأنها ... بأن بها سكر الخمور الأثيمة
لها شوق إلى خير معهد ... به خير عهد في العصور القديمة
يذكّرها العهد القديم سماعها ... لترجيع تالٍ للمثاني الكريمةِ
ورنّة أذكار وصوت مسبح ... ونغمة حادٍ بالمطايا المجدّة
وتغريد ورق فوق أغصان دوحة ... وتلحين شادٍ بالأغاني الرقيقة
وكل نسيمٍ هبَّ أو بارقٌ سرى ... وأشياء أرى في سترها حفظ حرمة

وفي مواضع أخرى يعبّر الإمام الحداد عن هذه المحبة عن طريق الخطاب للكعبة المشرفة رمز الإسلام وقبلة التوجه إلى الله كقوله رضي الله عنه:

يـــا نـــسيم الأطـــلال إن جزتَ بالله حيِّ ربّة الخالْ[1]
طـــاب منـــي البـــال لّما تنشقْ روحك الذي مَال
منـــه غـــصن ميَّـــال في وسط قلبي لا ذوى ولا زال
يـــا نـــسيم قـــد طـــال شوقي وحالي من بعادها حال

* * *

مـــن هَـــوىْ يخـــاطر بالكُـلِّ في المحبوب لا يحاذر
في الهـــوى معـــاسر لكنَّهـــا أنـــوارْ للـــسرائر
لـــيس ثـــمَّ خـــاسر الكـلّ رابحْ واصلٌ وسائر
ذِهْ ســـبيل الأبـــدال الأولياء أهل الصفا والأحوال

(١) الديوان (صـ٤٥٠ – ٤٥١).

الحب النبوي

الحب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أوليات العقيدة الإسلامية لا يتم إسلام العبد إلا به والمحبة له تؤدي إلى إتباعه قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال عليه الصلاة والسلام (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده**)[1] الحديث. والآيات والأحاديث كثيرة في هذا الباب وهي مفصلة في كتب الفقه والدين، وما يهمُّنا هنا أن نبرز معاني هذه المحبة ومدلولاتها عند علمائنا وأولياء الله وصفوة عباده، وما يرتبط بها من إمدادات وأنوار وأسرار وفيوضات لدى المحب الصادق والعارف العالم والمتذوّق المشاهد لحقيقة المحبة.

وهذا ما نلاحظه كثيراً عند الصوفية بشكل عام ولاسيما عند الإمام الحداد والذي يظهر في أشكال المدد النبوي والتعبير عنها بصورة المحب الصادق الذي يجري في مجرى المحبة الخالصة والمعرفة، والتعبير عن ذلك يأتي في إطار مراحل المحبة؛ من حب وشوق ويتجاوز (**الخوف**) لأنه يرتبط بمقام الحب الإلهي. وكذلك الوصل والقرب من المحبوب الأرضي كما هو الحال في محبة الأنبياء والرسل أو الأولياء والصالحين الذين استمدوا كل هذه الأنوار والفيوضات

---

(١) البخاري (١/ ١٤) (باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان).

الإلهية والإمدادات والأسرار بواسطة هذه المحبة النبوية حتى وصلوا إلى أعلى المراتب في المحبة والمعرفة لله تعالى.

يقول الإمام الحداد:

يا راحلاً إن جئت وادي المنحنى ... فاحطط به وانزل على كنز الغنى[1]

واقرأ السلام أُهيله عني وصف ... ما حلَّ بي بعد البعاد من الضنا

يا عربَ نجدكم تطيلون الجفا ... لمتيم حُشيتْ جوانحه عنا

كلفا بكم وتعشقا لجمالكم ... وتطلبا لوصالكم أقصى المنى

بودادكم تحيا القلوب وحبكم ... نور السرائر خير شيء يقتنى

وبقربكم ووصالكم تتنعم الـ ... أرواح في روض المسرة والهنا

ففي قوله: «وادي المنحنى» إشارة إلى المدينة المنورة و «كنز الغنى» إشارة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي قوله: «وتعشقاً» إشارة إلى مقام السلوك، و«بودادكم تحيا القلوب» بنور المحبة وأسرارها وتتهيأ لاستقبال الأنوار الإلهية غاية المحبة والمعرفة لأولياء الله وسبباً للإلهام الإلهي الذي يخصه لعبادة الصادقين في المحبة.

والإمام الحداد في حبه للرسول عليه الصلاة والسلام يوظف ما درج عليه الشعراء في الغزل من ذكر الأماكن والرسوم والخيام وما يتصل بمعشوقاتهم مع اختلاف المحبوب والمحب والقصد من المحبة. وهذا التوظيف يقوم أساساً على الرمز والإيحاء كقوله في وصف الكعبة الشريفة.

---

(١) الديوان (صـ ٥٢٨).

لهـا منظـر كالبـدر عنـد تمامـه وثغـر بـه درٌ وشـهدٌ فـما أغـلى[١]
إذا أسـفرت في يـوم عيـد تزاحمـت عليهـا عيـونٌ والقلـوبُ بهـا تُمـلى
وكـم مـن يـدٍ كـم مـن فـم متبرّك بمسح وتقبيل وقد بلغوا الوصلا
رعـى الله ذاك الوجـه وهـي بأسرهـا وجـوهٌ لمـن لله طـاف ومـن صـلى
وخـالٌ بـه العهـد الإلهـي أصـله مـن الجنـةِ العليـا فللـه مـا أعـلى

يا لها من أوصاف حاكتها أنوار سيد المرسلين في القلوب فتفوهت بها ألسن العارفين ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] حتى نخامته كانوا يتسابقون عليها.. كنت نوراً وآدم بين الماء والطين بألفي عام.

ويقول الإمام الحداد مشيراً إلى المدد النبوي من خلال ذكر الأماكن مثل (حاجر):

غـزال حـاجر بهجـة المـسافر ونزهـة الأرواح والخـواطر[٢]
فاقـتْ عـلى غـزلان شـعب عـامر جمالهـا الموصـوف قـد سـباني
لله يـا معـشوقة الجـمال لطيفـة الأوصـاف والـدلال
تعطفـي بـالقرب والوصـال عـلى حليـف المطـل والتـواني

وفي قصيدة أخرى يشير إلى موضع آخر في المدينة المنورة (**النقاء والرقمتين**) إشارة منه إلى الحب النبوي يقول:

يـا نـسيم الـصَّبا هـل مـن نبـا عـن غـزال النقـا والـرقمتين[٣]

---

(١) الديوان (صـ٥٥٦).
(٢) الديوان (صـ٥٣٣).
(٣) الديوان (صـ٥٣٦).

إن قلبـــي إليهـــا قـــد صـــبا وجـــرى مـــدمعي مـــن كـــلِّ عـــين
ذهـــب العمـــر فيهـــا كالهبـــا ضـــائعاً بـــين تـــبريحٍ وبـــين

وبالإضافة إلى المقام المحمدي يشير الإمام الحداد إلى مقامات نبوية أخرى كالمقام الموسوي والإبراهيمي وهي مقامات مترابطة تخرج من مشكاة واحدة وأعلاها وأفضلها المقام المحمدي قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] الآية. يقول الإمام الحداد[1]:

شرى البرق من نجدٍ فهيّج لي شجوى فهـل مـن سـبيل مـا إلى العـالم العلـوي
إلى الملأ الأعلى إلى القرب واللقا إلى طـور سـيناها إلى الـشطر والنَّحـوِ

وقد تتمازج هذه المقامات السامية وتصبح وحدة متكاملة في العالم العلوي في عالم الروح وهي مقامات الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين والملائكة المقربين يقول الإمام الحداد:

مرحبـاً مرحبـاً بِعُـرْب المـصلى وبأحبابنـا وأهـلاً وسـهلا[2]
هـم مـرادي وهـم منائي وقـصدي لـست عـنهم يـا صـاحبي أتـولى
كيـف أسـلو ودادهـم كيـف أنـسى عهـدهم والفـؤاد بالحـب يُمـلا
مـن قـديم في عـالم الـروح روحـي بـشهود جمـالهم تـتملى
قـدم الـصدق مقعـد الـصدق حـسبي وهـو حـسبي الـذي عـلى القـصد يُـتلى

(١) الديوان (صـ٥٥٠).
(٢) الديوان (صـ٥٥٨).

المدد البرزخي بـ «المحبوب الأرضي»:

يحتاج الصوفي إلى المدد البرزخي أو ما يسمى بشيخ النسبة أو المحبوب الأرضي الذي قد بلغ في طريق المحبة أعلى المراتب وحاز أرفع المقامات وشاهد من الأسرار الربانية جلَّ أن توصف، هذا الوصف ينطبق على أكثر من حال لأحوال أهل الطريقة العارفين لأنهم بمثابة المعين للسالكِ طريق المحبة والمعرفة. ولذا يقول الإمام الحداد «إن اليد في هذا الشأن لنا من أربعةٍ من أكابر آل باعلوي: الفقيه المقدم، والشيخ عبدالرحمن السقاف[١]، والشيخ عمر المحضار[٢]، والشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس[٣]، والآن: فاليد لنا من النبي عليه الصلاة والسلام بغير واسطة...»[٤].

وفي إشارات الحداد في قصائده إلى (ظبي عيديد) فهو كما يروى عنه يعني الفقيه المقدم يقول:

ولا تعدي يا ظبي عيديد ... من ربعنا ترعى الوفاء بتأكيد
ساعات وصلك كلها لنا عيد ... وأنت لي في الفانيات مقصد

وقوله: يا ظبي عيديد تركتني وحيد...

---

(١) عبدالرحمن بن محمد مولى الدويلة؛ المشهور بالسقاف، كان أعبد أهل زمانه كثير التهجد والتلاوة شديد الورع؛ ولد بتريم وتوفي بها سنة ٨١٩هـ (المشرع الروي) [٢/ ١٤١].

(٢) عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف، كثير المجاهدة في الأعمال الصالحات ولد بتريم وتوفي بها سنة ٨٣٣هـ (المشرع الروي) [٢/ ٢٤١].

(٣) عبدالله العيدروس بن أبي بكر السكران؛ كان عاملا إماما فاضلا سخياً، ولد بتريم وتوفي سنة ٨٦٥هـ (المشرع الروي) [٢/ ١٥٢].

(٤) الديوان (صـ ٥٢٢).

وقوله: يا ظبي عيديد ما في الحسن لك ثاني....

لقد بقيت روح هذا الصوفي «الفقيه المقدم» مصدر للإلهام لكل الصوفية في حضرموت منذ القرن السابع الهجري، ومحل حب كبير وتعظيم ومكانة خاصة وسامية لا ينازعه عليها منازع[١].

ولهذا نلاحظ ذكره في كثير من القصائد بصفة «مقدم القوم» أو باسمه «محمد بن علي» ففي قصيدته «ياظبي عيديد» يقول الإمام الحداد:

مقدّم القوم قطب الأولياء ومن ... سما بمجدٍ على القاصي مع الداني[٢]
شيخ الشيوخ وأستاذ الأكابر أر ... باب البصائر من حبر ورباني
إمام شرع له الباع الطويل به ... علم وحلم وتحقيق بإتقان
وشيخ أهل طريق الله قاطبة ... بلا دفاع ولا طعن لطعّان
محمد بن علي شيخ مشيخةٍ ... لنا واصلُ فروع ثُمرها داني
أنت الغياث لنا في كلّ نائبةٍ ... بعد الإله وطه خير عدنان

وقد يشير الإمام الحداد إلى الفقيه المقدم بقوله «يا صاحبي» في أكثر من قصيدة كقوله في قصيدة يرثي السيد أحمد بن عمر الهندوان[٣]:

يا صاحبي إن دمعي اليوم ينهملُ ... على الخدود حكاه العارض الهطلُ[٤]
وفي الفؤاد وفي الأحشاء نار أسىً ... إذا ألمّ بها التذكار تشتعلُ

---

(١) عمر بامخرمة، عبدالرحمن بن عقيل (صـ٤١).

(٢) الديوان (صـ ٥٢٣).

(٣) أحمد بن عمر الهندوان: كثير القيام والسجود والزهد والكرم، ولد بتريم وتوفي بها ١١١٣هـ (المشرع الروي ٢/ ٧٥).

(٤) الديوان (صـ ٤٤٦).

ومنها هذا البيت الجميل:

قل للحزين الذي يبكي أحبته إبك لنفسك إن الأمر مقتبل

وقد يشير أحياناً بقوله (يا صاحبي) إلى المدد النبوي وهو في حقيقة الأمر امتزاج رائع في خطابات الإمداد الروحي كقوله في قصيدته التي مطلعها:

لله أحبابنا بالأبْرَقِ العلَم وبالرسوم وبالأطلال من إضم[1]

ومنها:

يا صاحبي هل ترى الأيام تسعدني بعودةٍ بعد مسِّ الضعف والهرم

هيهات هيهات طال العهد وانتزحت عنها المنازل فوا لهفي ووا ندمي

وفاتني زمن الإمكان في كسل وغفلةٍ والرجا في الله معتصمي

وفي أحيان كثيرة يكتفي الإمام الحداد بالإشارة إلى أكثر من مدد برزخي من خلال ذكر المقبرة التي دُفنوا فيها كقوله في هذه القصيدة:

اليوم قلبي تذكر ما ولّى ومر

من عيشنا ذاك الأخضر مع باهي الغرر

سويجي الطرف الأحور معسول الدرر

ففاض دمعي تحدّر يجري كالمطر

هل عُرْبُ بشار يندرون

ما بي من شجون

(١) الديوان (صـ ٤٧١).

ففي قوله (عرب بشار) إشارة إلى المقبرة التي دُفن فيها عدد من الأولياء كالفقيه المقدم والسقاف، والعيدروس والمحضار وسعد السويني وهي تجمع ثلاث مقابر الفريط وزنبل وأكدر. وقد يتجاوز إلى مقام آخر كقوله:

مـــا بـــال جـــيران جـــيرون
لي مـــــــا يرحمـــــــون

إشارة إلى المكان الذي دفن فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وزوجته على أساس الرابط القوي الذي يربط هذه المقامات والتي تتوجه جميعها إلى وجهة واحدة هي المقام الأقدس للحضرة الآهية.

أساسيات أهل الطريقة:

يقول الإمام الحداد «وقد ردَّ بعضهم أصول هذه الطريقة إلى أربعة: قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام واعتزال الأنام، وبها صار الأبدال أبدالاً، وهي أركان بيت الولاية» وقد نظمناها في بيت من آخر التائية وهو:

وكـــن في طعـــام والمنـــام وخِلطـــة ونطـــق عـــلى حـــد اقتـــصار وقلـــةِ

وفي الرائية التي مطلعها:

يـــا زائـــري حـــين لا واشٍ مـــن البـــشر والليـــل يخطُـــرُ في بـــردٍ مـــن الـــسَّحَرِ
وبالرياضـــة مـــن صـــمت ومخمـــصة مـــع الـــتخلي عـــن الأضـــداد والـــسهر

ومن آخر العينية أيضاً:

والـــنفس رُضْـــها بـــاعتزال دائـــم والـــصمت مـــع ســـهر الـــدّجا وتجـــوّع[1]

(١) الديوان (صـ) الدعوة التامة والتذكرة العامة للإمام الحداد (صـ ٨٠ – ٨١).

ومما لابد منه في تحقيق بعض هذه الأركان (الخلوة) مع الحق تعالى ويحتاج فيها السالك هذا الطريق إلى المناجاة وهي عبارة عن نص شعري أو نثري أو كلمة يرددها كي يقوى تأثيرها للرقي بالنفس إلى الملكوت الأعلى.

يقول الإمام الحداد في المناجاة:

يَا مَنْ أُرَجِّي فَيْضَ فَضْلِهْ ... وَأَخَافُ مِنْ سَطْوَاتِ عَدْلِهْ[1]

مَا لِي سِوَاكَ فَلَا تَكِلْنِيْ ... يَا مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرْ كُلُّهْ

وقد قيل للجنيد رحمه الله تعالى: إنَّ أبا سعيد الخراز[2] كان كثير التواجد عند وفاته، فقال: ليس بعجب أن تطير روحه اشتياقاً إلى الله عز وجل. وكان في حالته تلك ينشد هذه الأبيات:

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم عند المناجاة للسر

أديرت كؤس للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكر

فأجسادهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري

فما عرَّسوا إلاّ بقرب حبيبهم ... وما عرّجوا عن مسِّ بؤس ولا ضرِ[3]

يقول الإمام الحداد في المناجاة:

يا ربنا يا ربنا ... يا ربُّ يا أهل الثنا[4]

يا ذا الجلال وذا العلا ... يا ذا البهاء وذا السنا

---

(١) الديوان (صـ ٤٥١) هكذا في الديوان.

(٢) هو أحمد بن عيسى الخراز قيل أنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء توفي سنة (٢٧٩هـ).

(٣) الدعوة التامة للإمام الحداد (صـ٩٣- ٩٤).

(٤) الديوان (صـ ٥٢٠ – ٥٢١).

ومنها:

يـــا أولاً يـــا آخـــراً يـــا ظـــاهراً يـــا باطنـــا
لـــك القِـــدم ولنـــا الحـــدوث ولـــك البقـــاء ولنـــا الفنـــا
يـــا أمـــل المـــؤمِّلين ويـــا مـــلاذاً كـــن لنـــا
هـــا أنـــا ذا عُبيـــدُك الـــ ـــجاني المقـــصر بالفِنـــا
ولقـــد أتـــاك بيأسـه عـــمَّا ســـواك ولا انثنـــى
صـــفر اليـــدين يمـــدُّها فأنِلْـــهُ غايـــات المنـــى

وأحياناً كثيرة تتخذ المناجاة شكلاً آخر فبدلاً من الخطاب المباشر يا رب، يا حي يا قيوم، يا أول، يا آخر،...الخ

يلجأ السالك هذا الطريق إلى أسلوب اللوم للنفس بالتقصير والتفريط في ضياع الأوقات «هذا إن كانت هناك أوقات ضائعة عند أولياء الله وهذا ظننا بهم؛ ولا نزكي على الله أحدا ولكنه الانكسار والتواضع والخوف والاعتراف بعجز الإنسان عن فهم قدره جل شأنه» عند هذه الحالة يتبادر إلى ذهن العارف بالله ما يعدّه تقصير في حق الله تعالى فيلوم نفسه ويتأسف ويندم ويحزن فيطلب من الله جل شأنه العفو والمغفرة حتى يصل إلى قربه والتحقق للمشاهدة للأنوار القدسية والأسرار الربانية. وهذه العملية لا تتأتى إلا في حالة الخلوة، والخلوة تحتاج إلى مثل هذه المخاطبة في إبراز التقصير والاعتراف. يقول الإمام الحداد في لاميته:

ألا يـــا نفـــس ويحـــكِ كـــم تـــواني وكـــم طـــول اغـــترار بالمحـــال[1]
وكـــم شـــغل بـــما لا خـــير فيـــه وكـــم حـــرصٍ عـــلى شرفٍ ومـــال

(١) الديوان (صـ ٤٠٠ – ٤٠١).

وكم سهو وكم لهو وهزل وكم ميل إلى دار الزوال

ومنها:

فوا أسفي ووا ندمي وحزني على ما كان مني في الخوالي
وعمر ضاع في إيثار دار حقيقتها تشبَّه بالخيال

ومنها:

لقد علمت ذوو الألباب طراً بأن الخير في طلب الكمال
بفطم النفس عن مألوف حظٍّ ورفض الفانيات بلا احتفال
وفي ظمأ الهواجر واعتزال عن الأشرار مع سهر الليالي
وإدمان التوجّه بافتقار وإقبال على مولى الموالي
إلهٍ واحدٍ مَلِكٍ قدير عظيم الشأن وهّاب النوالي

مقدمات الاتصال عند الصوفية:-

إنه من الطبيعي أن لا يصل الإنسان إلى مبتغاه دفعة واحدة من غير أن يتدرج صعوداً للوصول إلى الهدف ودون أن يسلك عدة مسالك وطرقٍ عليه تجاوزها وهذا ما درج عليه أرباب السلوك إلى الله للوصول إلى المحبة الخالصة بعدما تجاوزوا المقامات الأولى لسلوك الطريق كالتوبة والخوف والرجاء...الخ التي عدّها بعضهم اثني عشر مقاما. فأول مقدمات الاتصال عند الصوفية:

١- الحب: ويعني المحبة لله والذي يسعى أرباب الطريقة إلى تحقيقه ظاهراً بالامتثال لأوامر الله ونواهيه، وباطناً الوصول إلى حقيقة المحبة المطلقة بالمجاهدة

والرياضة والتخلي والتحلي والصمت والصوم والخلوة والشعور الباطني أن لا محبوب سواه سبحانه وتعالى وهي أعلى درجات المحبة.

تقول رابعة العدوية عندما سئلت عن حقيقة إيمانها «ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته، فأكون كالأجير السوء. بل عبدته حباً له وشوقاً إليه».

ويقول الإمام الحداد في هذا الباب قصيدته التي مطلعها:

يـا آخـذاً منـي بأذيـالي ... في بكـري أيـضاً وآصـالي[1]

ومنها:

قـد مـازج الـدم ودادي لـه ... وغـاص في لحمـي وأوصـالي
وصـار أقـصى مـا أؤملـه ... وصـاله يـا سـعد آمـالي
أنزلتهـا بـاب الكـريم ولـن ... أخـشى انقطاعـاً بعـد إنـزالي

* * *

يـا عـاذلي دع عنـك زخرفـة ... أتعبـت فيهـا بالـك البـالي
هـل أنـت مني حـين أكرمني ... ربي قريـب أيهـا الخـالي
وهـل رأت عينـاك سرّاً بـه ... قـد خـصَّني مـن بـين أشكالي
أومـا رأت روحـي ومـا سـمعت ... مـن غيبـه في المنظـر العـالي
وقـد حمـى أطـراف مملكتـي ... بـالقهر جـلَّ القاهر الـوالي
لي منـه عـين منـك تحفظنـي ... بالغيـب نعـم الحـافظ الكـالي

(١) الديوان (صـ ٤٣٩).

٢- *الشوق*: وهو ثمرة المحبة وملازم لها، فمن يحب شيئاً يشتاق إليه، يقول أبو علي الدقاق: «الشوق احتياج القلوب إلى لقاء المحبوب وعلى قدر المحبة يكون الشوق» وقيل في الشوق:

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

«والشوق في النهاية ألم وحزن ومعاناة ومكابدة لا تقطعها راحة وتوتر لا يسكن إلاّ باللقاء»[1].

يقول الإمام الحداد:

يا راحلاً إن جئت وادي المنحنى فاحطط به وانزل على كنز الغنى
واستعطف الأحباب كيما يعطفوا فهمُ همُ أهل المكارم والثنا
واسألهم بالله أن لا يقطعوا حبل المحبِّ المستهام وإن جنى
إني لأرثي من بُلي ببعادكم مثلي وأغبط من إليكم قد دنا
وأرى الحياة إذا خلتْ من وصلكم أنَّ الممات أسرُّ منها والفنا
وبقربكم ووصالكم تتنعّم الـ الأراح في روض المسرة والهنا
في مقعد الصِّدق الذي قد أشرقت أنواره بالعند يا لك من سنا

٣- *الخوف*: الخوف من القطع لحظة الوصول إلى المحبوب في أعلى درجات المحبة الخالصة والمعرفة الحقة وهو ملازم لأرباب الطريقة الظاهر منه في مقام الخوف والباطن منه في أعلى درجات المحبة المطلقة. يقول الإمام الغزالي عليه رحمة الله: «الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في

(١) عمر بامخرمة، عبدالرحمن بن عقيل (صـ١٩٥).

المستقبل»[١] ويقول القشيري: «ومن خاف من شيء هرب منه ومن خاف من الله هرب إليه»[٢].

يقول الإمام الحداد: في قصيدته التي استعرضناها في باب (الحب):

لي منه عين منك تحفظني ... بالغيب نعم الحافظ الكالي
لا آمن المكر ولكنني ... أريد أن أخزيك يا غالبي
أخشى إلهي وأوملّه ... وحسن ظني فيه أولى لي
وحسبي الله تعالى علا ... عن قول ذي إفكٍ وإضلالِ

فالخوف من الله له قمة الارتباط بالحق تعالى على أساس العلاقات الظاهرة والباطنة التي شملتها مفاهيم الشريعة المختلفة بالإضافة إلى تجسيد أرباب الحقيقة لهذه المقامات التي تسير نحو المحبة المطلقة وجني ثمارها.. أنوار وإمدادات.. وحقائق وأسرار ربانية متفاوتة في حالات الاتصال المختلفة وتدرجّها.

حالات الاتصال:-

وهي أحوال مختلفة تأتي بعد مقدمات الاتصال المختلفة من حبٍّ وشوق وخوف. وأول هذه الأحوال.

١ - الأنس: «إن الحجب التي تسدلها المعاصي والأمور الدنيوية وعوارض النفس هي التي تمنع التواصل بين العبد وربه، ولذا خلع عليه هذا الحجاب

---

(١) المرجع السابق (صـ١٩٦).

(٢) المرجع السابق (صـ١٩٦) - الرسالة القشيرية (صـ٦٠).

وتطهير قلبه عما سوى الله»[١].

عند هذه اللحظة يكون هذا القلب في حالة من الانشراح والطمأنينة توصله إلى الله عن طريق المحبة. وعلاماته الوحشة من الخلق والشعور بالغربة والخلوة مع الله واستعذاب الذكر والمناجاة والتلذذ بالطاعة واستظهار النعم التي أنعم بها الله جلّ شأنه على العبد ظاهرة وباطنة ووجوب الشكر والثناء عليه جلَّ شأنه حتى تظهر آثار ذلك على قلب العبد أنساً وفرحاً بالمعرفة. ومن ذلك يقول الإمام الحداد:

الحمد لله على كلِّ ما ... أولى من الخيرات والنِّعم[٢]
سبحانه أمطار رحمته ... يقدمها نشر من الكرم
ويبصر المحجوب من نورها ... شيئاً فيخرجه من الظلم
من عرف الله صفا قلبه ... وعاش محفوظاً من التهم
مُرَوَّحاً من همِّ تدبيره ... أنسٌ فلا يُوَحشْ ولا يضم
الصدر مشروح وفي سره ... أنس فلا يحوش ولا يظم

والأنس بالمحبوب أقل من حالة السكر والفنا لأنَّه استمرار للإحساس بالذات، أما السكر فهو غياب الإحساس بالذات ومحو في الحضرة الإلهية بسبب القرب من الله.

٣-*السكر*: وهو الشرب من كأس المحبة حينها يصل العبد السالك طريق أرباب الحقيقة إلى درجة غياب الإحساس من سكر الحضرة الإلهية، وفي هذه

---

(١) عمر بامخرمة، بن عقيل (صـ١٩٨).

(٢) الديوان (صـ ٤٥٥).

الحالة تستوي عنده اللذة والألم لغياب العقل عن شهود الوجود وفي هذا الباب يقول الشيخ الإمام عمر بن عبدالله بامخرمة[١]:

ذقت خمر الهوى العذري مع كل من ذاب
ذقت كأس الحلى منه وكأس التحجّاب

ويقول الإمام عبدالله الحداد في تصوير تلك الحالة التي يصل إليها العبد مع الله تعالى في محفوظ المحبة الإلهية والأنوار الربانية والأسرار التي يشهدها من جمال الحضرة الإلهية.

بَشِّرْ فَؤَادَكَ بِالنَّصِيبِ الوَافي مِنْ قُرْبِ رَبِّكَ وَاسِعِ الأَلطَافِ
الوَاحِدِ المَلِكِ العَظِيمِ فَلُذْ بِهِ وَاشْرَبْ مِنَ التَّوحِيدِ كَأساً صَافي
وَاشْهَدْ جَمالاً أَشْرَقَتْ أَنْوَارُهُ في كُلِّ شَيءٍ ظَاهِراً لا خَافي
وَعَلى مَنصِّ الجَمْعِ قَفْ مُتَخَلِّياً عَنْ كُلِّ فَانٍ لِلتَّفَرُّقِ نَافِ
وَالْبَسْ لِرَبِّ العَرْشِ في أَقْدَرِاهِ ثَوباً مِنَ التَّسْلِيمِ وَافٍ ضَافي

إلى أن قال:

رَاحُ الْيَقِينِ أَعَزُّ مَشْرُوبٍ لَنَا فَاشْرَبْ وَطِبْ وَاسْكَرْ بِخَيْرِ سُلَافِ
هَذَا شَرَابُ الْقَوْمِ سَادَتِنَا وَقَدْ أَخْطَا الطَّرِيْقَةَ مَنْ يَقُلْ بِخِلَافِ

ونرى الإمام الحداد في قصيدته التي مطلعها:

أهلاً وسهلاً بالحبيب الواصل من بعد ما نامت عيون العاذل[٢]

---

(١) عمر بن عبدالله بامخرمة: كان من أهل الأحوال والحقائق والأسرار، توفي سنة ٩٥٢هـ.

(٢) الديوان (صـ ٤٠٣).

يجمع فيها مقدمات الاتصال من حب وشوق وخوف وحالات الاتصال المزوجة كالأنس والسكر والفنا موضحاً فيها صفات القطب العارف في نهايتها يقول رضي الله عنه:

أحييتني بالقرب منك وباللقا ... من بعد موتي بالبعاد القاتل
يا من هواه وحبه ووداده ... سكن السَّويدا من فؤادي الداخل
أنت المراد وأنت غاية مطلبي ... من كل عالٍ في الوجود وسافل
راحت بروحي صبوة وصبابة ... بجمالك الفرد البديع الكامل
ذهبت به السكرات من كأس الهنا ... والأنس لا من كأس خمر الباطل
فتراه فانٍ عن عوالم حسه ... لا يستفيقُ لقول ضدٍّ عاذل[1]
فاشرب شراب العارفين الأوليا ... الجامعين لكل وصف فاضل

وفي وصفه للقطب نذكر إجمالاً ما وصفه الإمام الحداد ومنها التواضع، الخشوع، الورع، التقوى، الزهد، الشرع منهجه، والحقيقة حاله، عابد، رحيم، مراعٍ لأحوال الناس.

٣- *الفناء:* وهو تجربة داخلية يعيشها العبد في إطار المحبة الخالصة ولذلك من الصعب تحديد معنى دقيق لهذه الحالة وقد تحدث الإمام الغزالي عليه رحمة الله بقوله: «أن لا يرى في الوجود إلاّ واحداً وهو مشاهدة الصديقين.

وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلاَّ واحداً، فلا يرى نفسه أيضاً وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أفنى نفسه والخلق»[2].

---

(١) هكذا في الديوان والصواب: فتراه فانياً....

(٢) الإحياء ٤/ ٢٤٨٦.

يقول الإمام الحداد في هذا المعنى:

يـــا الله بـــذرّة مـــن محبـــة الله أفنـى بهـا عـن كـل مـا سـوى الله
ولا أرى مـــن بعـــدها ســـوى الله الواحـــد المعبـــود ربِّ الأربـــاب

وفي بيت آخر من قصيدته التي أشرنا إليها في باب السكر يشير إلى معنى الفناء من كلام الإمام الغزالي:

فـــتراه فـــانٍ عـــن عـــوالم حـــسّه لا يـــستفيق لقـــول ضـــدٍّ عـــاذل
غـــوث البريـــة كلهِّـــا ومغيثهـــا عـــن إذن ســـيّده المليـــك العـــادل

ولعلَّ قصيدة الإمام الحداد التي مطلعها:

الله لا تـــشهد ســـواه ولا تـــرى إلّا هُـــوْ في مُلـــكٍ وفي ملكـــوت[1]

والتي شرحها الحبيب العلامة عبدالله بن جعفر مدهر[2] تُعدّ إبحارا عميقا في عوالم الإمام الحداد في توضيح هذه المقامات ومنهما قوله رضي الله عنه:

ســـافرْ إليـــه بهمـــةٍ علويـــةٍ حتـى تـراه وقـل لنفسك مُـوْتي[3]
وأقبـل عليـه بكـل قلبـك قاصـداً محـو الظـلال أشـيرُ للناسـوت
بالـشمس شـمس الـذّات حتـى لا تـرى شـيئاً سـوى متقـدّس اللاّهـوت
فـإذا انتهيـت إلى الـذي عرَّفتـه شـاهدت مـن عـرش إلى بهمـوت
ورأيـــت سرّاً لم يجـــز إفـــشاءه أهـل الهـدى والكـشف والتثبيـت
يـا ليتني قـد غبتُ عـن هـذا الـورى ودعيـت بالمـستغرق المبهـوت

---

(١) الديوان (صـ ١٠١).

(٢) عبدالله بن جعفر مدهر توفي سنة ١١٦٠هـ.

(٣) الديوان (صـ ٩٧).

ولا بأس هنا أن نشير إلى شرح الحبيب مدهر إجمالا قال:

«ولما ذكر شوق روحه المطهرة القدسية العلوية مما ألفته قديما وكان الحال به تسليماً، لخلوة من الأغيار، والتنزل لأهل الأكدار، قال بلسان حال الفناء والمحو (يا ليتني قد غبت) غيباً شهودياً معنوياً عن هذا الورى..».

القسم الثاني
يا زائري (جوهرة الديوان)

توطئة:

يمكن القول عن هذا الإبحار بأنه محاولة لكسب خيرٍ ذاتي واستظهار نور من أنوار هذا العَلَم الكبير، واغتراف يسير من هذا البحر الواسع كاستثناء أصحاب النهر الذين ابتلاهم الله بالمنع من الشرب منه وخفف عنهم بقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾[البقرة: ٢٤٩] الآية.. فإني والله تكفيني غرفة واحدة من بحر الإمام الحداد. ويمكن لنا في هذا المقام الإشارة إلى قول صاحبه وتلميذه السيد الإمام أحمد بن زين الحبشي في محاولته شرح العينية وهو مَنْ هو!!

«بل ربما يتعذر ويبقى مما لا أعرفه أكثر من ذلك بكثير وهذا كله على قدري وعلى قدر ما أعطاني الله سبحانه وتعالى من الفهم في حقائق الدين وظواهره، وأما على قدر شيخنا وبركتنا فلا أعرف شيئاً»[1].

يقول الإمام الحداد في العينية:

يا سائلي عن عبرتي ومدامعي ... وتنهدٍ ترتج منه أضالعي

وتأسفٌ وتلهفٌ وتشوّق ... وتعرّف وتطوفٌ بمرابع

(١) أحمد بن زين الحبشي، شرح العينية (صـ٥).

بدأ الإمام الحداد قصيدته بالنداء (يا سائلي)، والنداء شكل عنده نقطة الانطلاقة، وهو أسلوب يتكرر في كثير من قصائده وأشعاره فمن يسأل الإمام الحداد عن هذه الأحوال المتعلقة بصفات القلوب؟ ومن أعرف منه بالسؤال والإجابة في زمانه؟

إنها لحظة من لحظات الامتزاج بين الوعي واللاوعي، والظاهر والباطن، فالسائل هو القلب أو الروح، وربما بشكل أدق النور الإلهي الذي حل في القلب بعد مجاهدات طويلة والذي تسبب فيها الصراع والتداخلات في عالم الظاهر الذي استقرَّ في عالم الباطن على شكل أو حالة اليقين.

فالعَبرة، الرّجُ، الأسف، التلهف، مزيج باطني من الخوف والقطع وعدم الفهم لمعاني الحقيقة المطلقة. والدموع والتنهد مزيج ظاهري ونتيجة سببتها الامتزاجات الباطنية. وفي ظلِّ هذا التداخل تبرز بواكير المحبة المطلقة في قوله:

(تشوّف، تعرّف، تطوّف) وهي أصول في الطريقة الصوفية تُشكِّل وحدة متكاملة في عوالم الباطن أو اللاوعي المتراكمة بين طرفي العلاقة المحب والمحبوب. يقول الإمام الحداد:

يكفيك مسألتي شهودك ما ترى من شاهدي في وحدتي ومجامع

وهي النتيجة المطلقة بين حالة التنبيه للوعي في الأبيات الماضية والإرخاء للوعي وإبرازها بصورة الإقناع الظاهر، والقناعة بمن يحب واليقين والرضاء بأن المحبوب لن يخذله في الباطن.

يقول الإمام الحداد:

وظـواهر الأحـوال تغنـي ذا الحجـا والفهـم عـن نطـق اللـسان الـذائع

وفي محاولة أخرى للإبحار في قصيدة أخرى من قصائد الإمام الحداد، والتي كان ربان سفينتها السيد الإمام أحمد بن أبي بكر بن سميط في شرحه للرائية يقول الإمام الحداد:

وصـفٌ مـن الأكـدار سرِّك إنـه إذا ما صفا أولاك معنى من الفكر

تطـوف بـه غيـب العـوالم كلِّهـا وتسري به في ظلمة الليل إذ يسري

من خلال هذا النموذج نجد أن الإمام أحمد بن سميط، يصف ما يدور في القلب من عوالم متداخلة في عالم اللاوعي أثناء شرحه «المراد بالسّر القلب، والتصفية تخلية الشيء عما كان فيه، والأكدار الأوصاف المذمومة أمراض القلوب العجب والكبر والرياء الحسد الغضب، شهوات البطن، والفرج، وحب المال، والجاه، والغرور، وطول الأمل. وحلّه بالأوصاف الحميدة كالتوبة، التواضع، الصبر، الشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والورع، والتوكل، والإخلاص»[1].

ولتوضيح منهجنا في هذا التأمل أو الإبحار في بحور شعر الإمام الحداد، نأخذ هذا البيت كنموذج مصغر.

ألا يا الله بنظرة من العين الرحيمه تداوي كل ما بي من أمراضٍ سقيمه

---

(١) أحمد بن أبي بكر بن سميط، منهل الوارد من فيض الإمداد (صـ١٥٩).

من خلال إعادة النظر في البيت السابق نلاحظ مجموعة من التداخلات في عوالم العقل الباطن والعقل الظاهر أو اللاوعي والوعي والعلاقات الناتجة عنهما وفق خصوصية كل واحدٍ منها كعلاقات السبب والنتيجة، وتنبيه الوعي وإرخاءه فالفعل المضارع (تداوي) في هذا السياق يفيد الاستمرارية في الاعتراف بالتقصير على شكل (أمراض) معنوية وهي ما يشار إليها عند أرباب التصوف بأمراض القلوب المختلفة في لحظات اللاوعي وتداخلات العقل الباطن التي تكونت من علاقات ديناميكية متداخلة خرجت بعد ذلك إلى ساحات الوعي التي تفسر تلك العلاقة الإلهية التي قد توصل الإنسان إلى حدّ (السقم) في ظاهرها وفي باطنها عبارة عن مجموعة التداخلات المزوجة بمدلولات كثيرة، الوصل، القطع، الخوف، الرجاء،، الفهم، اللافهم، هذه التداخلات الباطنية تعبت في تكوينها حالة الوعي للواقع السيئ ومحاولة جديدة راقية للوعي في فهم واقع أفضل وتكوينه.

إن هذا التناغم بين العقل الباطن والعقل الظاهر من جهة وبين علاقات اللاوعي والوعي من جهة أخرى أفرز الديمومة في هذه العلاقات في الفعل (تداوي) مع الاعتراف بالتقصير والخوف من عدم الوصول إلى فهم أعلى مراتب الفهم في عالم الباطن كل هذا أدى إلى التدخل بالوعي الظاهري في استخدام كلمة (العين) أصل الأشياء في مدلولها اللغوي. والتي تحتمل أبعاداً أزلية في أسماء وصفات الله عز وجل في بواطن أهل التصوف التي تحتمل في مفهومها العاطفي ومدلولها الآخر، كل معاني الرعاية، المحبة الرحمة، الحفظ القوة ...

إذاً يمكن القول في هذا الاتجاه سارت الألفاظ في انسجام وأجمل ما في هذا البيت (التقديم) فيما يتعلق بالله جل شأنه (ألا يا الله بنظرة) وتأخير ما يتعلق بالعبد.. (تداوي كل ما بي من أمراض) والسياق الطبيعي (إني سقيم فانظر إليّ يا رب بعين الرحمة) كل هذه الأشياء تتزامن مع تداخل الأشياء ومراعاة التقديم فيما حقه التقديم في عالم الباطن وتحديداً فيما يتعلق بفهم العلاقة بين الإنسان وربه، وتأخير فيما حقه التأخير وتحديداً بما هو مستحدث في بواطن الإنسان في تناسقٍ منقطع النظير.

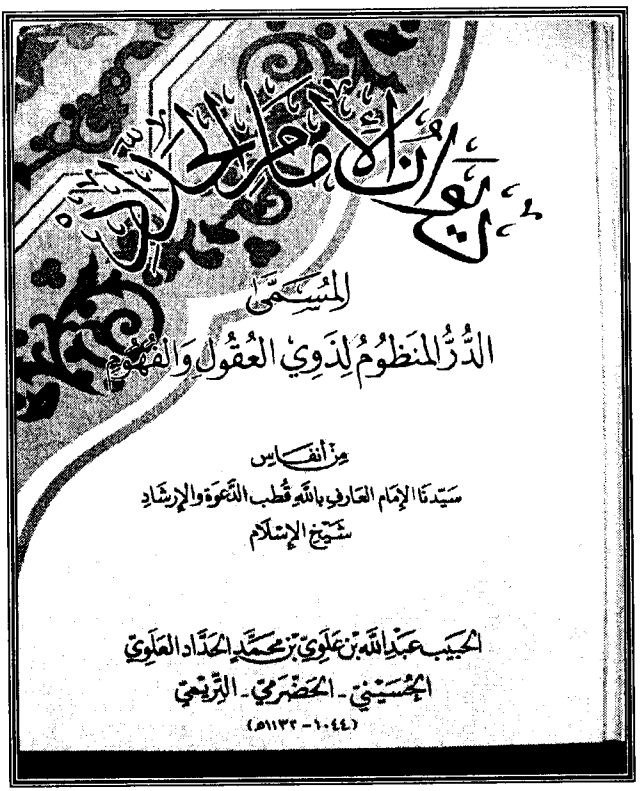

صورة غلاف ديوان الإمام الحداد

جوهرة الإمام الحداد

(يا زائري)

يا زائِري حينَ لا واشٍ مِنَ البَشَرِ ... والليلُ يخطُرُ في بُردٍ مِنَ السَّحَرِ[1]

فَقُلتُ يَا غَايَةَ الآمَالِ مَا سَبَقَتْ ... مِنْكَ المواعِيْدُ بِالتّقريبِ في الخَبرِ

وَلَوْ بَعَثتَ رَسُولاً مِنكَ يَا مُرُني ... بِالسّعِي نَحْوكَ لاسْتَبْشَرتُ بِالظّفَرِ

فَكيفَ إِذْ جِئتَ يا سُولي ويَا أَمَلي ... فَالحمدُ لله ذَا فَوزٌ بِلَا خَطَرِ

مَا كُنتُ أَحْسَبُ أني مِنْكَ مُقْتَرَبٌ ... لما لَدَيَّ مِنَ الأَوْزَارِ يَا وَزَري

حَتّى دَنوتَ وَصَارَ الوَصلُ يجمَعُنَا ... وَالسِّر مِنْكَ وَمِنّي غَيرُ مُسْتَتِرِ

عَلى الكَثِيبِ مِنَ الوَادِي سَقَاهُ حَياً ... مِنَ الغَمَائِمِ بِالآصَالِ وَالبُكَرِ

لله بَارِقَةٌ للقَلبِ قَدْ لَمَعَتْ ... مِنْ عَالمِ الأَمْرِ لَا مِنْ عَالمِ الصُّورِ

أَنْسَتكَ إِيَّاكَ وَالأَكْوَانَ أجمَعَهَا ... وَأَوْقَفَتكَ عَلَى المَطْلُوبِ وَالوَطَرِ

هَذَا الحَدِيثُ وَمَا يَخْفَى عَلَى فَطِنٍ ... إنِّي أَرَدْتُ بِهِ التَّنْبِيهَ فَاعْتَبِرِ

* * *

يا أَيُّهَا الجَوهَرُ المحْصُورُ في صَدَفٍ ... مُخْلَوْلَقٍ غَرَضِ التَّغْيِيرِ وَالكَدَرِ

مُثَبَّطٍ في حَضِيضِ الحَظِّ همّتُهُ ... في لَذّةِ البَطْنِ وَالمنْكُوحِ وَالنَّظَرِ

تَقُودُهُ شَهَوَاتٌ فِيهِ جَامحَةٌ ... حَتّى تَزُجَّ بِهِ لجّةِ الخَطَرِ

---

(١) ديوان الإمام الحداد، عبدالله بن علوي الحداد (صـ٢٩٦ – ٢٩٧).

يَا أيّها الرُّوحُ هَلْ تَرْضَى مجاوَرَةً ... عَلَى الدَّوَامِ لهذَا المُظْلِمِ الكَدِرِ
فَأَينَ كُنْتَ وَلَا جِسْمٌ تُسَاكِنُهُ ... أَلَسْتَ في حَضَراتِ القُدْسِ فَادّكِرِ
تَأْوِي مَعَ الملأ الأَعْلَى وَتَكْرَعُ مِنْ ... حِيَاضِ أُنْسٍ كَما تَجْنِي مِنَ الثَمَرِ
تَأْتِي إِلَيْكَ نَسِيمُ القُرْبِ مُهْدِيَةً ... عَرْفَ الجَمالِ كَعَرْفِ المَنْدَلِ العَطِرِ
حَتّى جُعِلْتَ بِأَمرِ الله في قَفَصٍ ... لِيَبْتَلِيْكَ فَكُنْ مِنْ خَيرِ مُخْتَبَرِ
فَحِيْنَ أَبْصَرتَ هَذَا الجِسْمَ قَدْ بَرَزَتْ ... بِهِ العَجَائِبُ مِنْ بَادٍ وَمُسْتَتِرِ
أَنْسَتكَ بَهْجَتُهُ مَا كُنْتَ تَشْهَدُهُ ... مِنْ قُدْسِ رَبِّكَ فَاعْرِفْ ضَيْعَةَ العُمُرِ
رَضِيْتَ بِالفِكْرِ عَنْ كَشْفٍ وَأَيْنَكَ مِنْ ... جَلِيَّةِ الحَقِّ إِنْ أَخْلَدْتَ لِلفِكْرِ
لَا تَقْنَعَنَّ بِدُونِ العَينِ مَنْزِلَةً ... فَالحَبُّ مِنْ يَكْتَفِي بِالظِّلِّ وَالأَثَرِ
وَعُدْ هُدِيتَ فَقَدْ نُوْدِيتَ مُطَّرِحاً ... هَذَا الوُجُودَ وَمَا فِيهِ مِنَ الغِيَرِ
وَاسْلُكْ سَبِيْلاً إِلَى الرَّحْمَنِ قَيِّمَةً ... بِها أَتَاكَ إِمَامُ البَدْوِ وَالحَضَرِ
مَشْرُوْحَةً في كِتَابِ الله وَاضِحَةً ... فَسِرْ عَلَيْهَا وَكُنْ بِالصِّدقِ مُتَّزِرِ
وَبِالرِّيَاضَةِ مِنْ صَمْتٍ وَمَخْمَصَةٍ ... مَعَ التَّخَلِّي عَنِ الأَضْدَادِ وَالسَّهَرِ
وَدُمْ عَلَى الذِّكْرِ لَا تَسْأَمْهُ مُعْتَقِداً ... أَنّ التَّوَجُّهَ رُوْحَ القَصدِ في السَفَرِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لا تُفْضِي إِلى غَرَضٍ ... بِدُونِ أَنْ تَقْتَفِي في الوَرْدِ وَالصَّدَرِ
خَيْرَ النَّبِيينَ هَادِيْنَا وَمُرشِدَنَا ... بِمَا أَتَانَا مِنَ الآيَاتِ وَالسُّوَرِ
صَلّى عَلَيهِ إِلهي كُلّما سَجَعَتْ ... حَمَامَةٌ فَوقَ مَيَّاسٍ مِنَ الشَّجَرِ

جوهر الإمام الحداد (يا زائري):

بداية يمكن الإشارة إلى تعريف الإمام الحداد للمحبة المطلقة والتعبير عنها يقول رضي الله عنه «ومعاني المحبة تلطفّ وتجلّ جداً عن إمكان التحدث بها، لأن العبارة لا تأتي على معانيها ولا يمكن التعبير بالمعاني عنها بحال لأنها لا تدركها العبارة، ولهذا ترى أهل المحبة لمّا أدركوا من معانيها ما يجلّ وصفه ولا يمكن كشفه، واختاروا بسبب ذلك إلى التنفس والتروّح إنما يعبرون عنها بقوالبها التي هي صورها والمعاني أرواح قائمة أرواح قائمة لها. فلما عجزوا عن التعبير بالمعنى، عبروا بالقوالب والصور، وذلك كتغزلهم بليلى وسعدى، ولبنى، وهند ودعد، وغير ذلك»[1].

ومثلما احتاجوا لمثل هذه الأسماء، اختاروا أيضاً أسماء لبعض الأماكن للتعبير الرمزي والإيحاء بمكنونات النفس مثل (عيديد) إشارة عن الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي المدد البرزخي لكثير من الصوفية أو (حاجر) موضع بالمدينة إشارة إلى المدد النبوي وغيرها كثير ولكل واحدٍ منها مدلول ترمز إليه.

يقول الإمام الحداد مُعبراً عن المحبة المطلقة:

أنا مشغول بليلى ... عن جميع الكون جمله
فإذا ما قيل من ذا ... قل هو الصبُّ المولّه
أخذته الراح حتى ... لم تبق فيه فضله
راح أنس راح قدس ... ليست الراح المضلّه

(١) الإمام الحداد مجدد القرن الثاني عشر د/ مصطفى البدوي (صـ١٤٩).

فالناظر لهذه الأبيات يجد تعبيراً عن مكنونات النفس في المحبة التي لا تستطيع المعاني احتوائها. وهذه الألفاظ ما هي إلا صورة تقريبية لما جبلت عليه النفس البشرية من تأثير العشق والسكر باطناً وظاهراً مع اختلاف نتائج ومدلولات المحبة لكلٍ منهما ومراتبها.

ولهذا فالتعرض للحق سبحانه وتعالى مراتب ودرجات أدناها الاستعداد الذاتي الذي لا يقترن به شرٌ في الأصل، وأعلاها التعرض للحق بصفة المحبة الخالصة، المطلقة عندها لا يطلب العبد سواه جلّ شأنه ولا يحب سواه من غير بيان وذروة الإلغاء لمدلولات التساؤل لماذا؟ كيف؟ ومتى؟ بعد تدرجٍ أفنوا فيه أجسامهم قبل أرواحهم. يقول الإمام الحداد:

محب ليس يدري من يحبُ ... ولا ماذا يحب أيستتب
له هذا فقل لي يا نديمي ... و أوضح ما تحب لمن تحب
إذا هبت نسيمات المعالي ... تزلزل قلبه إن كان قلب
وإن مرّت أحاديث الغواني ... به يبكي بدمعٍ لا يَغِبُّ
فهل هذا من الأدواء داءٌ ... يداويه ويجدي فيه طِبُّ

إنها حالة من حالات الشعور الباطني تجمعت فيها كل حالات الشوق والمحبة مع حتمية القرب المزدوج بالظن بالبعد والجفا، حينها يستهوي النفس الشعور بالهجر والانفصال لحظة الوصول إلى المحبوب، وهي قمة الذروة في الحب الإلهي عند الصوفية.

فمع قول الإمام الحداد (الأدواء داء) تجمّعت فيها كل معاني التقصير والخوف والاعتراف والقطع، إلا إنها تُشَكِّل في نهايتها (الدّواء) فليس هنا ثمّة

تناقض بقدر الامتزاج بين اللاوعي المتعلق بمكونات المحبة الخالصة وأبرزها على ساحة الوعي لتحديد العلاقة اللغوية والوظيفية (للداء والدواء) فيمكن القول في غير هذا المقام بقول أبي نواس (وداوني بالتي كانت هي الداء).

ويمكن الإشارة هنا إلى قول الإمام الحداد في (**النصائح الدينية**) معنى الحب لله «ميل وتعلق يجده العبد في قلبه إلى ذلك الجناب الأقدس الرفيع مصحوباً بنهاية التقديس والتنزيه وغاية التعظيم والهيبة لله تعالى...»[1].

يقول الإمام الحداد في قصيدته (**يا زائري**):

يـا زائـري حـين لا واشٍ مـن البـشر والليـل يخطـر في بُـردٍ مـن السَّحرِ

مطلعٌ تتجسّد فيه مظاهر الامتزاج والتداخل في ساحات العقل الباطن والظاهر ومدلولات اللاوعي والوعي في مختلف العلاقات بين العبد والمعبود بين القرب ومدلوله والبعد ومدلوله عند الصوفية في معرفة الحقيقة المطلقة..

(يا زائري) بداية العلاقة ونهايتها جمعتها الإضافة بين المخاطب وياء المخاطب في أسمى معاني الارتباط والاتحاد والوحدة والخلوة بالمحبوب في مدلولها غير الوظيفي تجمعها عناصر الزمان والمكان والنشوة (**والليل يخطر في بردٍ من السَّحر**)، بعيداً عن الحسَّاد (**حين لا واش**) وهو في مدلوله الآخر للذين لا يدركون حقائق الأمور ويقفون على ظواهر الأشياء فهم في مثل هذا الوقت الذي يشير إليه الإمام الحداد نيام لا يتعرضون إلى ما يتعرض إليه ولا يقترب منهم من يقترب إليه فزائرهم النوم والغفلة والكسل وعدم الفهم لمطلق المحبة. ولذا نرى الإمام الحداد يتعرض لهذه النفحات وهي غاية الآمال.

---

(١) النصائح الدينية، الإمام عبدالله الحداد (صـ٢٤٣).

فقلت يا غاية الآمال ما سبقت منك المواعيد بالتقريب في الخبر

فغاية الآمال لدى المحب الوفاء بالوعد وعد المحبوب، ولكن التذكير بالوعد طبيعة المحب الذي أنهكه الشوق للقاء في علم الباطن، ومدلوله في لحظة خروج إلى عالم الظاهر، والعودة من جديد إلى الباطن، وهذا ما يميز شعر الإمام الحداد، قدرةٌ فائقة على الاختزال فيما يتعلق بعلم الظاهر، والإيحاء والرمز فيما يتعلق بعلم الباطن في كثير من الأحيان شأنه في ذلك شأن أهل التصوف والحقيقة مع مرتبة الشرف والتفوق. وهنا يشير الإمام الحداد إلى مجموعة من الأحاديث القدسية التي حدّد فيها رب العزة والجلال العلاقة بينه وبين العبد «ما سبقت منك المواعيد بالتقريب في الخبر».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه وما يزال يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنه...**»[1] الحديث. وقوله في حديث التقريب فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ بشبرٍ تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[2].

---

(١) البخاري ٥/ ٣٣٨٤.

(٢) البخاري ٦/ ٢٦٩٤، ومختار الحديث الشريف، عمر بن محمد بن حفيظ (صـ٢٣).

وهناك غيرها من الأحاديث المتعلقة بتوضيح هذه العلاقة فالإمام الحداد استوعب مدلول هذه الأحاديث ومعانيها، وعلى هذا الأساس تبدأ القصة بالولوج إلى عالم اللاوعي من خلال فهم حق قدره جلّ وتعالى، يقول الإمام الحداد:

فلو بعثتَ رسولاً منك يأمُرُني بالسّعي نحوكَ لاستبشرتُ بالظّفَرِ
فكيفَ إذ جئتَ يا سُولي ويا أَمَلي فالحمدُ لله ذا فَوزٌ بلا خَطَرِ

اتصال مباشر في مثل هذه اللحظات من غير واسطة فوز وسعادة في الدنيا والآخرة، إذن عند هذه اللحظة لحظة الاقتراب والوصول تبدأ دَيْمُومةُ الاعتراف بالتقصير والخوف (لما لديَّ من الأوزار) من عدم المعرفة الحقّة والفهم المطلق لمعاني ومدلولات المحبة الخالصة. ومع ذلك ينادي رب العزة والجلال عبده أن اقترب أكثر وادنُ، إنها انعكاسات حالات الوجد والشوق المتداخلة في عوالم الباطن اللاشعوري جسدتها الألفاظ في حالات الظاهر والوعي. والوصل والتوحد، والاندماج المعروف لدى البشر.

يقول الإمام الحداد:

مَا كنتُ احسِبُ انّي مِنكَ مُقْتَرِبٌ لما لَدَيَّ مِنَ الأوزَارِ يَا وَزِري
حَتّى دَنَوتَ وَصَارَ الوَصْلُ يَجْمَعُنَا والسِّرُّ مِنكَ وَمِنِّي غَيرُ مُستَتِرِ

هنا تصل العلاقة إلى نهايتها التي سعى إليها الإمام الحداد من أجل الوصول إليها، وصلٌ، عطاء، مطر، بعد الشعور العميق بالتقصير والخوف، والبعد، والجدب.

عَلَى الكَثِيبِ مِنَ الوَادِي سَقَاهُ حَيَاً مِنَ الغَمَامِ الآصَالِ وَالبُكَرِ

وفي هذا البيت أيضاً نلاحظ أن هناك ثمّة قطع مقصود بذاته وربما يكون إشارة إلى المحبوب الأرضي الذي يمثل المدد البرزخي، أو ما يعرف عند كبار أهل التصوف بشيخ النسبة الذي تحنُّ إلى لقائه الأرواح في عالم البرزخ ولعلّه الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي (على الكثيب من الوادي) وادي عيديد الذي يمتاز في نهايته بالكثيب قبل عملية السفلتة والرصف في وقتنا الحاضر.

إن سياق النص في البيت الذي قبله (حتى دنوتَ وصار الوصل يجمعنا) يستقيم بتوضيح السبب في قوله في البيت بعده:

لله بَارِقَـــةٌ للقلـــبِ قَـــدْ لَمَعَـــتْ مِـنْ عَـالَمِ الأَمْـرِ لا مِـنْ عَـالَمِ الـصُّورِ[1]

من خلال هذا البيت يتمثل التناغم التام بين السبب والنتيجة، فالسبب في تنبيه الوعي نور الإيمان المزروع في القلب وهو ينمو ويزيد بالطاعة حتى يصبح القلب كله نوراً أو محل النور الإلهي «**ما وسعتني سماواتي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن**»[2] الحديث.

عند هذه اللحظة يصل العبد إلى المعرفة المطلقة والحقيقة المطلقة وهي درجات متفاوتة وهي النتيجة في إرخاء الوعي عندها يصل الإنسان إلى عوالم الباطن وتداخلات اللاوعي لتبدأ رحلة التعرض للحق سبحانه وتعالى، في أدنى مراتبها وهو الاستعداد الذاتي الذي لا يقترن بالشر أصلاً وأعلاها التعرض بصفة المحبة الخالصة (لله بارقة قد لمعت من عالم الأمر) حالة من حالات التلقي المباشر كقوله تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] وليحيى عليه السلام

(١) قال الإمام الحداد في المكتابات: (عالم الأمر هو عالم الأرواح).

(٢) كتاب الزهد لابن حنبل ١/ ٨١.

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾[مريم: ١٢] ولمريم ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] هذه نماذج لعالم الأمر، أما علم الصور وهو شكل من أشكال التلقي ولكنه عبر وسائط مختلفة لا تعدُّ ولا تحصى.

عند الوصول إلى هذا المقام العالي إلى هذه الذروة (المحبة الخالصة) لا يطلب العبد سوى الله سبحانه وتعالى ولا يحب أحداً سواه. وهي مقامات عاليات وصل إليها الإمام الحداد عليه رضوان الله الذي يقول:

اِنْسَتَكَ إيَّاكَ والأكْوَانَ اجْمَعَهَا ... وَاَوْقَفَتْكَ عَلَى المطْلُوبِ وَالوَطَرِ

هَذَا الحديثُ ومَا يَخْفَى عَلَى فَطِنٍ ... إنِّي اَرَدتُ بِهِ التَّنْبِيهَ فَاعْتَبِرِ

هكذا يختتم الإمام الحداد هذا المقطع الندائي (يا زائري) بعد الوصول إلى القمة قمة النشوة والسكر التي أنسته نفسه (إياك) ومن في الكون أجمع، وتلاشت رغبته فيما هو مطلوب لدى البشر من ناحية وما ترغب فيه النفس من رغبات، وتفردَ بالمحبة الإلهية.

وتبدأ القصيدة من جديد بمطلع ندائي آخر وهذه المرة مع القلب بعد الفوقان من حالة الغيبوبة في أعلى درجات اللاوعي والخروج منه إلى عالم الوعي من خلال التذكير بالسبب المؤدي إلى النتيجة التي توصل إليها الإمام الحداد بعد مجاهدات ورياضات طويلة، والتي أبرزها بدايةً بطريقة عقلية ظاهرية.

يقول الإمام الحداد:

يَا أيُّهَا الجَوهرُ المحصورُ في صَدَفٍ ... مُخْلَولَقٌ غَرضِ التَّغييرِ وَالكَدَرِ

مُثَبَّطٍ في حَضِيضِ الخَطِّ هِمَّتُهُ ... في لَذَّةِ البَطْنِ وَالمَنْكُوحِ وَالنَّظَرِ

تَقُودُهُ شَهَوَاتٌ فِيهِ جَامِحَةٌ ... حَتَّى تَزُجَّ بِهِ في لُجَّةِ الخَطَرِ

يخاطب الإمام الحداد قلبه وسماه الجوهر لأنه محلّ نظر الله جلَّ وعلا، المحصور في صدره (صدف) على الظاهر. وفي الحقيقة الباطنة امتلأ هذا القلب بالنور الإلهي واستوعبه فكيف يضمه صدر ضيق وهذا النور الذي لم تسعه سماوات وأرض رب العزة والجلال استقرَّ في قلبه، فكيف يتحمله بعد ذلك صدر أو جسم محدد ومغلق. هذا الجسد البالي كونه عرضة للتغير والكدر ولكنه قد يكتسب نوراً من أنوار القلب ويصبح ماشياً في إطار المحبة والمعرفة وكأن ثمة علاقة مطردة بين القلب والجسد يزيد القلب نوراً كلما عمل الطاعات وينقص هذا النور كلما عمل المعاصي، وهنا يمكن الإشارة إلى قول الإمام الحداد في درجات اليقين «فالقلب الذي يعلوه الصدأ لا يتمكن منه الإيمان، وتعصف به الأهواء وتزعزعه الهواجس فثمرة اليقين تطهير القلب من الشوائب المتداخلة في حالات القلب» اهـ.

«**مُثَبِّط في حضيض الحظِ همَّته**» يعني قليل الهمة في عمل الطاعات والمجاهدات وبالتالي يؤثر في القلب محل الفهم والمعرفة الحقة. ولكن سياق الكلام في المدلول الآخر الاعتراف بالتقصير الممزوج بالخوف شأنه في ذلك مثل كل العارفين بالله.

فهو يعدُّ ما يأكل لذة وماذا يأكل الإمام الحداد رضي الله عنه. وهو القائل «نحن الآن إنما نعد من جملة الأموات لأنها قد ماتت منا جميع الشهوات الدنيوية، فإذا قرّب إلينا المأكول أكلنا ما تيسر بحكم الموافقة».

إن مقام الإمام الحداد تجاوز كثيراً مدلول الألفاظ فهنا في قوله (المنكوح) وهو ما يتعلق بلذة الفرج الحلال، وقد عُرف عنه التزوج أكثر من مرة ولكنه نهى ابنه علوي فيما أظن عن ذلك لكنه كما قال الإمام عن نفسه أنه مأمورٌ بذلك.

(والنظر) لذة قد تصل إلى درجة الاستمتاع للمنظور حيواناً كان أم جماداً أو غير ذلك، غير أنه قد يصل إلى حدِّ الذنب عند الإمام الحداد وأصحاب المقامات لأنه في مثل هذه الحالة يكون من باب الاستحسان، وما يُستحسن يُحب، وإن أحبه العارف وقع في الخطر وذلك لأن أصحاب الطريق الحق والمحبة الخالصة لا يرون شيئاً سوى الله ولا يحبون غير الله. يقول الإمام الحداد في كتابه (آداب سلوك المريد) «وليحذر من النظر بعين الاستحسان إلى زهرة الدنيا وزينتها فإن ظاهرها فتنة وباطنها عبرة، والعين تنظر إلى ظاهر فتنتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها»[1].

والإمام الحداد في ندائه الثاني للقلب سمى كل ما ذكره شهوات جامحة تحدُّ من الوصول إلى المعرفة الحقة. ولأصحاب الظاهر تفسيرهم لهذه المعاني ومدلولها اللغوي وهم على حدِّ فهمهم. ولكن ما كان للإمام الحداد أن يتحدث عن فهم العوام في هذا المقام بعد الندائية الأولى (يا زائري) والتي تحدثنا عن مدلولها الباطني وتداخلات الوعي واللاوعي والسبب والنتيجة.

نداء الروح:

يقول الإمام الحداد في ندائه الثالث مخاطباً الروح:

---

(١) آداب سلوك المريد، الإمام عبدالله بن علوي الحداد، (صـ١٨).

يـا أيّهـا الـروحُ هـل ترضـى مجـاورةً على الـدوامِ لهـذا المُظْلِـمِ الكَـدِرِ

بعد ندائه الأول فيما يتعلق بعلاقة العبد بالمعبود وتداخلات هذه العلاقة، وندائه الثاني فيما يتعلق بعلاقة القلب بالجسد واتطرادها سلباً وإيجاباً، ينتقل الإمام الحداد إلى ندائه الثالث وهو خطاب الروح وعلاقاته بالجسد والتداخلات الباطنية والظاهرية بينهما.

(الروح) المحور الأساسي الذي تقوم عليه مخاطبات اللاوعي والتداخلات المختلفة والامتزاج بين العلاقات الأسمى والمتناقضات التي أشرنا إليها بداية، وهو في كل هذه الأحوال يشكل استقلالية متفردة. ومع كل ذلك يتساءل الإمام الحداد في هذا الاستفهام الإنكاري (**هل ترضى**) بالخروج من هذا العالم الباطني إلى العالم الظاهر المتمثل في الجسد (**المظلم الكدر**) لتبدأ رحلة الصراع بين عوالم الباطن والظاهر (**وقد كنت بلا جسم تساكنه**) أي في عالم الأزل قبل أن تودع جسد أبينا آدم عليه السلام.

أيها الروح كنت في الموضع الذي يسعى إليه والوصول إلى أعلا درجاته أصحاب الطريقة والمحبة المطلقة حيث القرب والأنس والصفا المطلق، وأصبحت اليوم في جسدٍ أظلمه الإعراض عن الله وكدرت صفوه الذنوب والمعاصي، وأبعدته عدم القدرة على فهم حقيقة وجوده وأمامك اختبار صعب وحجب أرضية وعلوية يجب عليك اجتيازها لتصل حيث كنت في الحضرة القدسية:

يقول الإمام الحداد:

فـاينَ كنـتَ ولا جِـسْمٌ تُـسَاكِنهُ الـستَ في حَـضَرَاتِ القُـدسِ فَـادّكرِ

تَـاوِي مَـعَ المـلأ الأعْلَـى وَتَكْـرعُ مِـنْ حِيَـاضِ أُنـسٍ كَمَـا تُجنِـي مِـنَ الثَّمَـرِ

تَـأتِي إليـكَ نَـسيمُ القُـربِ مُهْدِيـةً عَـرْفَ الجَمَـالِ كَعَـرْفِ المَنْـدَلِ العَطِـرِ
حَتَّـى جُعِلَـتَ بِـأمْرِ اللهِ في قَفَـصٍ لِيَبْتَلِيـكَ فَكُـنْ مِـنْ خَـيرِ مُخْتَـبرِ

إذن فالروح قوة هائلة خرجت من الحضرة القدسية إلى الأجساد لتؤدي ما أمرها الله جلّ شأنه «وبهذا نعلم أن قوةً هي الكنز المعنوي للإنسان فيه تتحقق أمانيه، وبالتخلي عن الصفات الدنيئة والتحلي بالصفات الحميدة يرقى الإنسان بنفسه إلى المستوى الفاضل»[1].

إن الحديث عن هذا الموضوع أمر ذو شجون ولا بأس أن نذكر علاقات الروح من كلام الإمام الغزالي رضي الله عنه.

«إن النفس والعقل والقلب والروح تأتي أحياناً بمعنى واحد، فإذا غلبت الشهوة على الروح سميت نفساً، وإذا غلبت الروح على الشهوة سميت عقلاً، وإذا أصبحت لها مواجيدها سميت قلباً وإذا عرفت الله حق المعرفة سميت روحاً»[2].

ومن هذا المنطلق تبدأ هذه العلاقات في التداخل في بواطن الجسد، العقل، النفس، القلب بعد أن كانت الروح المقدسة خارجة عنها في معناها الأسمى.

يقول الإمام الحداد: في توضيح هذه العلاقات

فَحـينَ ابْـصَرتَ هَـذَا الجِسمَ قَـدْ بَـرَزَتْ بِـهِ العَجَائِـبُ مِـنْ بَـادٍ ومُـسْتَتِرِ

فالظاهر فيها أفعال الجوارح وهي وسائل ارتكاب الآثام الظاهرة (بادٍ) وأما الآثام الباطنة المتعلقة بأمراض القلوب المختلفة كالحسد، الكبر، الحقد،

(١) رحلة في ديوان الإمام الحداد حسين محمد الهدار (صـ٣٣).

(٢) المرجع السابق (صـ٣٧).

الرياء، العجب وغيرها كثيرة والتي توجب الآثام الباطنة عند عامة الناس (مستتر) أما الخواص وتحديداً خواص الخواص إذا لم تكن هذه الجوارح نحو المعرفة الحقة المتعلقة تماماً بالمجاهدة في الطاعة والعبادة في الظاهر والباطن المتداخلة الموصلة إلى المحبة المطلقة وإلاّ فهي تعدَّ من الآثام لما يراه أصحاب الأحوال والمقامات من التقصير والخوف من عدم معرفة الحق سبحانه وتعالى، وإن كانوا قد تحققوا بحقائق المعرفة الحقة كما نظن بأولياء الله، ولا نزكي على الله أحداً، هو خير من زكاهاً.

ويستمر الإمام الحداد في خطابه للروح وفق مفاهيم تحدثنا عنها سابقاً. يقول الإمام الحداد:

أَنِسْتَكَ بَهْجَتُهُ مَا كُنْتَ تَشْهَدُهُ ... مِنْ قُدْسِ رَبِّكَ فَاعْرِفْ ضَيْعَةَ العُمُرِ

رَضِيتَ بِالفِكرِ عَنْ كَشْفٍ وَأَيْنَكَ مِنْ ... جَلِيَّةِ الحَقِّ إِنْ أَخْلَدْتَ لِلفِكَرِ

أنستك أيها الروح ما كنت عليه في الحضرة القدسية كل هذه الملذات الظاهرة والباطنة وما ارتبط بها من زينة الحياة الدنيا وزخرفها، وأصبحت تعمل الفكر والعقل في تحصيل المعرفة وفق امتحان وابتلاء لا يتجاوزه إلا من أعطي نور الهداية وسعى به في ركاب المجاهدات العظيمة (**وأينك من جليّة الحق إن أخلدت للفكر**) وقد كنت في الحضرة الإلهية تشهد من القدسية الربانية كشفاً ومع ذلك فالإمام الحداد سعى به إلى المرتبة العالية والمقام السامي لدرجات اليقين بل عين اليقين.

يقول الإمام الحداد:

لا تَقْنَعَنْ بِدُونِ العَينِ مَنْزِلَةً ... فَالحَبُّ مَنْ يَكْتَفِي بِالظِّلِّ وَالأَثَرِ

وهي الدرجة التي كان عليها الروح في العالم القدسي قبل اختلاطه بالجسد. وهذا ما يرجوه الإمام الحداد من عودة الروح إلى سابق عهده من خلال تجاوز هذا الامتحان الصعب لما في هذا الوجود من محطات كثيرة ينبغي تجاوزها يقول الإمام الحداد:

وَعُدْ هُدِيتَ فَقَدْ نُودِيتَ مُطْرِحَاً هَذَا الوجُودَ ومَا فِيهِ مِنَ الغِيَرِ

وفي خاتمة هذه الجوهرة الحدادية، ذات الأبعاد الندائية الثلاثة يوضح الإمام الحداد الطرق الموصلة إلى هذه الدرجة العالية مبيناً فيها السبل المختلفة والمتداخلة والمترابطة في منهج الشريعة من الكتاب والسنة النبوية الشريفة المجتمعة في أرقى مستوياتها طريقة أرباب الطريقة والحقيقة الموصلة إلى المحبة المطلقة التي سار عليها العارفون بالله سبحانه وتعالى. ومن جملتها طلب العلم والدعوة إلى الله والعلم بالأحكام ومجاهدة النفس في الطاعة مشيراً إلى أصول أهل الزهد والتصوف (**كالصمت**) عن أيِّ شيء يجلب شراً من الشرور (ومخصمة)، ومن جملتها الصوم عن الأكل في مفهومه العام والصوم عن الكلام وغيره (**والتخلي عن الأضداد**)، التخلي عن كل ما هو ضد في المعنى والمدلول لكل جوانب الخير المختلفة كالصدق وضده الكذب وقس على ذلك والتي تشير إليها كتب التهذيب والسلوك والأخلاق والآداب وتحذر منها كالكبر والرياء من أمراض القلوب، والربا وأكل مال اليتيم والغش من مواضيع آداب المعاملة (والسهر) في طاعة الله والمجاهدة في العبادة كالصلاة وتلاوة القرآن والتفكر في آيات الله والمداومة على الأذكار والأوراد التي توجب نظر الله عز وجل للعبد ويصل بعدها إلى القرب الذي وعد به جلَّ شأنه ومسك ختام هذه الجوهرة

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم اعترافاً من المؤمن الذي لا يستطيع أن يفي حقه من التقدير تاركاً الصلاة عليه من ربِّ العالمين. يقول الإمام الحداد:

وَاسلُك سَبيلاً إلى الرّحمنِ قَيِّمَةً ... بِهَا أَتَاكَ إِمَامُ البَدْوِ وَالحَضَرِ

مَشْرُوحَةً في كِتَابِ الله وَاضِحَةً ... فَسِرْ عَلَيهَا وَكُنْ بالصِّدقِ مُتَّزِرِ

وبالرياضَةِ مِنْ صَمْتٍ ومَخْمَصَةٍ ... مَعَ التَّخَلِّي عَنِ الأَضْدَادِ، والسَّهرِ

وَدُمْ علَى الذِّكرِ لا تَسْأَمْهُ مُعْتَقِداً ... أنَّ التَّوجُّهَ رُوْحُ القَصْدِ في السَّفَرِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لا تُفْضِي إلى غَرَضٍ ... بِدُونِ انْ تَقْتَفِي في الوِرْدِ والصَّدْرِ

خَيرَ النبيينَ هَادِينَا وَمُرْشِدَنَا ... بِمَا أَتَاكَ مِنَ الآيَاتِ والسُّوَرِ

صَلَّى عَلَيهِ إِلَهِي كُلمَا سَجَعَتْ ... حَمَامَةٌ فَوقَ مَيّاسٍ مِنَ الشَّجَرِ

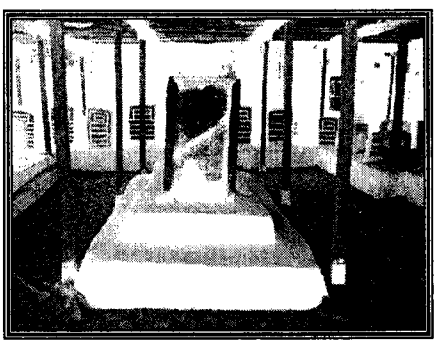

ضريح الإمام الحداد

الخاتمة

إن هذه الجوهرة التي حاولنا من خلالها التأمل في بعض مدلولات الألفاظ عند الإمام العظيم سيدي ومولاي وقرة عيني وسر إلهامي للولوج في بحر علمه الكبير الإمام القطب عبدالله بن علوي الحداد، هذه الجوهرة التي جَمَعتْ في حُسنِها وسرِّ انتظامِ حروفها العبادات والمجاهدات في دَيْمُومَةِ المحبةِ المطلقة وتداخل العلاقات الباطنية والظاهرية في ضوء العِلْمِ الباطن والظاهر ونتائجها في حالات اللاوعي والوعي وهي كثيرة ومتداخلة منها الحب، والشوق، والخوف، الوصل القطع، الشعور بالتقصير، والاعتراف، والسكر، أو الغيبة.

وثمرة هذه التداخلات في أصول الطريق إلى الله سبحانه وتعالى حالات وانفعالات وإيماءات مصاحبة والتعبير عنها أو بعضها عن طريق اللغة، كلمات وألفاظ لها مدلولها الخاص والعام، ورموز لها حركة الروح والجسد معاً في قمة الحب الإلهي لحظة الغيبة والسكر وهو (الشرب من كأس المحبة حين يغيب عنه الإحساس ويفقد الوعي من سكر جمال الحضرة الإلهية وإن كان الصوفي يعجز عن تصوير تلك التجربة أو التعبير عنها إلا بما بقي في ذهنه من لمحات وآثار)[١].

وأساس هذا الأمر كله تصفية القلب من الأكدار كما قال الإمام الحداد في الرائية.

---

(١) عمر بامخرمة السيباني، عبدالرحمن بن عقيل (صـ٢٠٠).

وصفٌ من الأكدار سرّك إنه إذا ما صفا أولاك معنى من الفكر

تطوف به غيب العوالم كلها وتسري به في ظلمة الليل إذ يسري

ولا بأس أن نذكر في خاتمة المطاف شرح الإمام أحمد بن أبي بكر بن سميط لهذين البيتين كخلاصة لعوالم الباطن والظاهر لأصحاب المعرفة والحقيقة المطلقة «المراد بالسر القلب، والتصفية تخلية الشي عما كان فيه، والأكدار الأوصاف المذمومة أمراض القلوب العجب، والكبر والرياء، الحسد، الغضب، شهوة البطن والفرج وحب المال والجاه والغرور وطول الأمل. وحلّه بالأوصاف الحميدة كالتوبة والتواضع والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والورع والتوكل والإخلاص»[1].

وأخيراً التمسُ في هذا المقام مقام العائذ بمقام الإمام الحداد كل الاعتذار بسوء أدبٍ غير مقصود جاء في هذا البحث بما يليق لخوض هذا البحر الواسع؛ ولكن السفينة قد أبحرت بدافع المحبة فإن وصلت إلى برِّ الأمان فبتوفيق الله تعالى وإن تعثّر مشيها فلسوء تدبير ربّانها.

أسأل الله العظيم أن يكون هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم وأن يكتبه دليلاً على حبِّ أوليائه الصالحين وأن ينفعنا ببركاتهم وأنوارهم وعلومهم في الدين والدنيا والآخرة.

(١) منهل الوراد من فيض الامداد شرح أبيات القطب عبدالله الحداد (صـ١٥٩).

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

الفقير إلى عفو ربه

هشام بن كرامة الرباكي

٢٨/ربيع أول/١٤٢٨هـ

١٥/إبريل/٢٠٠٧م

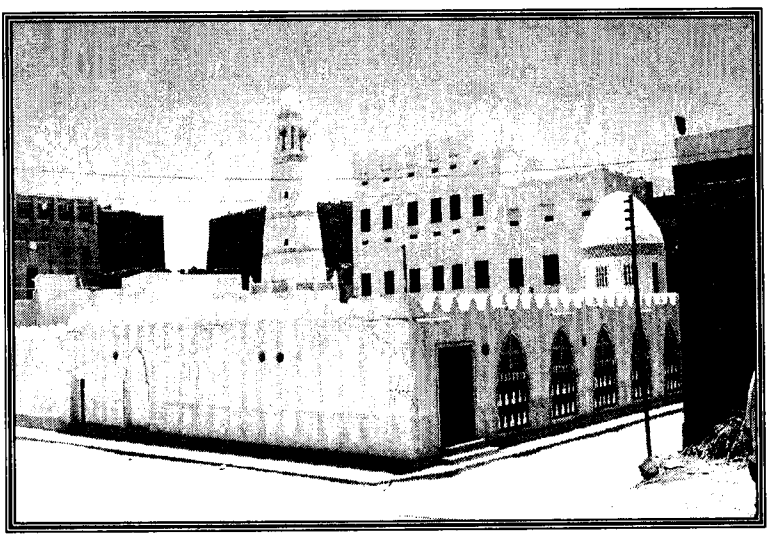

صورة مسجد باعلوي

حيث كان الإمام الحداد في صِباه يصلّي مأتي ركعة كل يوم

مراجع البحث

١. القرآن الكريم.

٢. صحيح الإمام البخاري.

٣. الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم (ديوان الإمام الحداد).

٤. النصائح الدينية والوصايا الإيمانية. الإمام عبدالله بن علوي الحداد.

٥. آداب سلوك المريد الإمام الحداد.

٦. شرح العينية، الإمام أحمد بن زين الحبشي.

٧. منهل الوارد من فيض الإمداد، أحمد بن أبي بكر بن سميط.

٨. رحلة في ديوان الإمام الحداد، جسين بن محمد الهدار.

٩. عمر بامخرمة السيباني، عبدالرحمن بن عقيل النهدي.

١٠. الإمام الحداد مجدد القرن الثاني عشر د/ مصطفى البدوي.

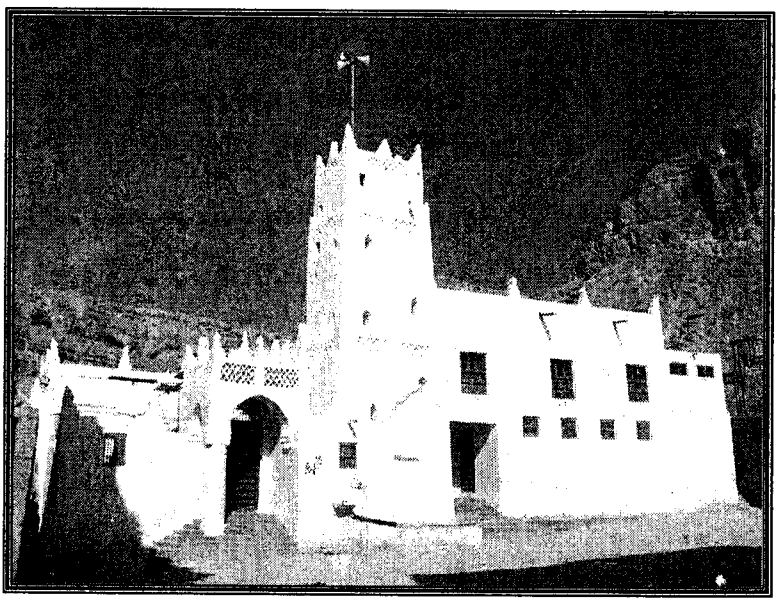

صورة مسجد الأوابين الذي أسسه الإمام الحداد بالنويدرة

محتوى البحث

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
شكر وتقدير	٦
تقريض	٧
تقديم	٨
المقدمة	١١
ترجمة للإمام الحداد	١٥
القسم الأول	٢٣
الشعر عند الإمام الحداد	٢٣
الحب النبوي	٢٧
المدد البرزخي بالمحبوب الأرضي	٣١
أساسيات أهل الطريقة	٣٤
مقدمات الاتصال عند الصوفية	٣٧
حالات الاتصال	٤٠
القسم الثاني	٤٧
توطئة	٤٧
جوهرة الإمام الحداد (يا زائري)	٥٣
التأمل في قصيدة يا زائري	٥٥
الخاتمة	٦٩
مراجع البحث	٧٣
محتوى البحث	٧٥

هشام كرامه الرباكي
جوال: ٧٧٧٢٢٧٦٤٨